كلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي

رثاء المدن والممالك بين بغداد والأندلس

دراسة مقارنة بين سعدي الشيرازي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ
وأبي البقاء الرندي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ

تأليف :
مريم عبد الله إبراهيم الهاشمي

طبع بدعم من
المكتب الخاص لسمو الشيخ ماجد بن محمد بن راشد آل مكتوم

1433 هـ / 2012 م

ت عليا/كلية

250332
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
المكتبة المركزية
رقم التسلسل: ٦٧١٠٢٥
رقم التصنيف:

كلية الدراسات الإسلامية والعربية
مكتبة الدراسات العليا

رثاء المدن والممالك
بين بغداد والأندلس

دراسة مقارنة بين سعدي الشيرازي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ
وأبي البقاء الرندي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ

تأليف
مريم عبد الله إبراهيم الهاشمي

إشراف
عبد الرحمن بناني

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات
درجة الماجستير تخصص أدب ونقد
الرقم الجامعي : ٣٠٥١١٨٤

طبع بدعم من
المكتب الخاص لسمو الشيخ ماجد بن محمد بن راشد آل مكتوم

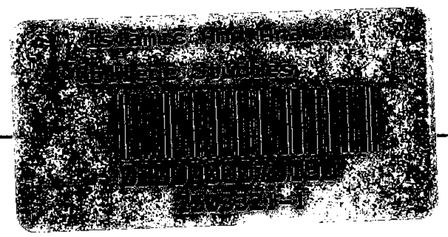

1433 هـ/2012 م

ISBN978-9948-16-569-9

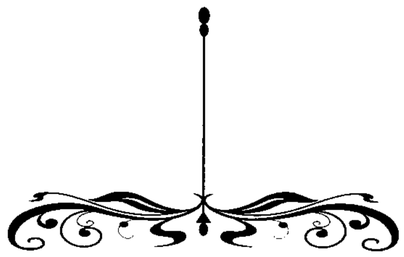

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن
رأي المؤلف وتحت مسؤليته العلمية والا
تعبر بالضرورة عن توجهات
المكتب الخاص لسمو الشيخ ماجد بن محمد بن راشد آل مكتوم

بسم الله الرحمن الرحيم

أعضاء لجنة المناقشة:

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٠١٨/٧/٧م

وقد منحت تقدير جيدجداً

وتمت المناقشة من قبل اللجنة العلمية المكونة من:

١- أ.د. عبدالباسط عطايا	رئيساً
٢- أ.د. محمد رفعت زنجير	مناقشاً خارجياً
٣- أ.د. محمد عيلان	مناقشاً داخلياً
٤- أ.د. عبدالرحمن بناني	مشرفاً

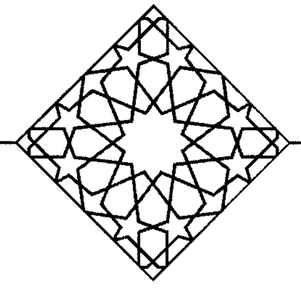

شكر وتقدير

الحمد لله الذي أنعم عليّ بنعمة الإسلام، وهداني إلى طريق العلم والرشاد، وأسبغ عليّ من نعمه الظاهرة والباطنة، فله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله.

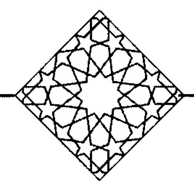

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

أقتبس من الدكتور تركي الحمد في كتابه «عن الإنسان أتحدث تأملات في الفعل الحضاري»، في حديثه عن الإنسان، إن الإنسان مر بمحن ومصائب منذ أن حمل لواء الحق، وأراد أن يُخرج نفسه وغيره من ظلمات الجهل إلى النور، ولكنه لاقى كل أنواع الرفض بكل تعبيراتها لا لذنب إلا لأنه أراد حياة أفضل في الدنيا والآخرة، والإنسان هو الإنسان سواء في المشرق أو المغرب، فعندما كان الهدف واحداً أصبحت التبعات متشابهة، وبفضل الإسلام حافظ على مكانته بين الحضارات وأمام الإنسان الآخر مدة من الزمن، ولكن ما أن ركن إلى التقاعس والدعة والراحة؛ حتى أصبح فريسة سهلة أمام أطماع وتكالب الطامعين، وضاع موروث حضاري زخم من المشرق والمغرب.

وكما قال أحمد عقون في دراسته (رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي القديم ٣٩٩-٩٢٣هـ): أعز شيء عند الإنسان وأحبه إليه، المكان الذي ولد فيه، ونشأ وترعرع على أرضه فهو أبدا مرتبط به، محب له كل الخير والمن، مهما كان نوع الحياة التي عاشها فيه، وكان الشعراء في العصر الجاهلي، يظهرون مشاعرهم و إحساساتهم إزاء ديارهم وممالكهم ويخلصون في رعايتها، ويرددون ذلك في قصائدهم ومعلقاتهم، ولهذا نراهم يبكون ديارهم إذا بعدوا عنها، سواء أكانت أطلالا أم خياما وبيوتا من الشعر زالت، ولعل رثاء المدن والممالك يندرج في هذا النوع من الأمكنة والأوطان التي اعتاد الإنسان العيش في رحابها، وتظلل أفياء نعيمها، فإذا زالت هذه المدن والممالك لسبب من الأسباب كان على سكانها أن يبكوها، وهل أجدر من الشعراء في إظهار هذه العاطفة تجاهها ؟

كان التعبير متباينا عن القهر والظلم والضياع الذي شعر به الإنسان الذي كان يتمتع في فترة من الفترات بكل ما يرضي إنسانيته وكرامته، ومن أنواع التعبير،الشعر ويعد الشعر ديوان العرب، إذ إنه تسجيل وتأريخ لأحداث مرت على أمم مضت، ومن أشهر من كتب في رثاء الأندلس أبو البقاء الرندي، وفي رثاء بغداد استرعى انتباهي سعدي الشيرازي وما تحويه قصيدته من ألم وحسرة وغيرة على الحضارة الإسلامية، ووجدت أن دراسة القصيدتين واستخراج أوجه التشابه بينهما من موضوعات لتشابه في المحنة وتشابه في المصير، فكانت دراستهما بحثاً في منجم ألماس واستخراج أحجار ثم صقلها وكسرها بطريقة تمتع الرائي لها، ولهذا كانت الرحلة ممتعة بقدر مشقتها، طويلة متأنية في

اختيار الحجر الثمين.

ودراسة النص الأدبي – الرثاء – ليس بالموضوع الجديد، فقد كانت هناك دراسات سابقة تناولت موضوع الرثاء وخاصة رثاء الأندلس، منها:

أبو البقاء الرندي ورثاء الأندلس لمحمد بوذينة.

أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس للدكتور محمد رضوان الداية.

رسالة دكتوراة بعنوان شعر الجهاد والحروب في الأندلس لموسى رزق ريحان.

ورسالة ماجستير بعنوان رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي القديم لأحمد عقون.

بالإضافة إلى عناوين أخرى كثيرة تطرقت إلى موضوع الرثاء، ولكن المذكورة هنا هي التي كان التركيز فيها أعمق عن الرثاء.

والجديد هنا طريقة تناول النص الأدبي ؛ ولهذا يسعى البحث إلى فتح أبواب ومدارك جديدة في محاؤلة لمواكبة المدارس النقدية الحديثة ومزاوجة بين القديم والحديث، فكانت القصيدة هي نقطة الانطلاق، وكانت النظرة عامة في بدايتها وما لبثت أن وضحت الصورة، و تم تقريب المجهر فيها شيئاً فشيئاً لمعرفة نقاط التشابك والالتحام في القصيدتين.

إن شعر الرثاء من أكثر الشعر المرتبط بالعمق الإنساني، ففيه الكثير من الانفعالات المختلطة، والمشاعر المتغيرة التي تراها في شدة وليونة، وهذا ما أعطى البحث مزيداً من المتعة والثراء.

وتم التركيز على الجانب الإنساني في مواضع كثيرة مما يعكس تجربة إنسانية، وعلى الثقافة الإسلامية والمؤشرات اللغوية. وقد كان البعد النفسي ملائماً لتفسير بعض الجوانب وتوظيفها بالقدر الذي يتحمله الموضوع.

وهكذا، فسيلاحظ القارئ، أنه ليس هناك صرامة في اختيار الموضوعات ودراستها وفي تفصيل العمل الأدبي، بل يجد مرونة وملاءمة، ليوافق طموح البحث وهو إعادة قراءة النص الأدبي وبيان مرونته ليواكب الجديد برؤية فنية جمالية.

وهذا البحث لا يريد أن يقول كل شيء في الموضوعات المذكورة فيه، وليس له أن يدعي ذلك ؛ بل حاول قدر الإمكان أن يلم بها، متجنباً الإطالة والإطناب، حريصاً على الإيجاز والاختصار بدل الإسهاب، دفعاً للرتابة و الملل.

والذي دفعنا إلى ذلك توفر الكثير من المؤلفات التي آثرت حشر الكثير من القصائد والإطالة في أغراضها وأحياناً التكرار فيها، التي كانت تخاطب القارئ المتخصص أو القارئ المبتدئ، وحاولنا – هنا – أن نتوجه نحو فئة تقف وسطاً بينهما، تحاول جاهدة أن تشق طريقها نحو المعرفة دون أن تضيع في معمعة المناهج والمدارس.

لذا حرصنا كل الحرص على جذب القارئ وإمتاعه وفتح مداركه على سهولة التعامل مع النص الأدبي متمثلاً في هذا البحث في قصيدتين من أروع قصائد الرثاء.

وقد اعتمدت المنهج الموضوعاتي بما يقتضيه من تجميع المواد حسب الموضوعات، واستعنت في ذلك ببعض المراجع في المنهج النفسي الذي بنى عليه دانييل برجيز منهجه في كتابه «النقد الموضوعاتي»، كان فيه التقاء المنهج الموضوعاتي مع النفسي في الأسس، فهناك الاهتمام المميز بالصور، والرغبة ذاتها بتجاوز المعنى الظاهر للنصوص، واعتماد القراءة العرضانية للأعمال الأدبية وهي قراءة تسمح بعقد المقارنات وإظهار التشكيلات التصويرية والترسيمات الغالبة، وبين كذلك أن المنهج الموضوعاتي فكرته المركزية هو موضوع تجربة أكثر منه معرفة، وأن هذه التجربة هي ذات جوهر روحي. ويتفق النقاد ذوو الاتجاه الموضوعاتي أن الفن قبل كل شيء ليس بناء شكلياً بل تأتي أهميته من قدرته على توليد تجربة ما وإنتاج معنى يؤثر في الحياة.

والموضوع كما يقول الدكتور حميد لحميداني في كتابه «سحر الموضوع عن النقد الموضوعاتي في الرواية والشعر» يتجلى في الإبداع الأدبي من خلال سحره الخاص ؛ ذلك أن المبدع نفسه لا ينقاد إلى موضوعاته بملكاته الواعية وحدها، إنه على الأصح ينجذب إليها بقوة لا يطال دائماً معرفة طبيعتها الخفية، المبدع لا يدرك باستمرار أسرار إبداعه، غير أن مغامرة النقد تطمح إلى كشف أسرار هذا الانجذاب الخفي في النص، على تيمات محددة تتناسل وتتقاطع وتتعارض، ولا يغيب عن الذهن أن التقسيمات الموضوعاتية في كثير من الدراسات لم تخضع لنفس النسق بل اتخذت أنساقاً شديدة التباين ؛ ذلك أن كل ناقد يختار صيغة موضوعاتية مكونة من عدد من التيمات أو من تيمة واحدة رئيسية تتفرع عنها تيمات أخرى.

المنهج الموضوعاتي يكشف عن النص من حيث تماسكه الباطن وإظهار الصلات السرية بين عناصره المبعثرة، فالمنهج الموضوعاتي يوظف الكثير من خلاصات المناهج الأخرى ويحاول دائماً أن ينفلت من التحديد.

وجاء اختيار القصيدتين للأهمية التاريخية والأدبية، ولنقل تجربة واقعية أليمة لها صدىً وامتداد تاريخي عن طريق الشعر، ولبيان قضية الموازنة من ناحية الإبداع بالنسبة لكلا الشاعرين، وإسهاما في تنويع الدراسات الأدبية، ومحاولة غور الجديد في عملية النظر إلى الأعمال الأدبية من زوايا جديدة، و موازنة بين الأدب العربي في المشرق والمغرب في موضوع من أهم المواضيع التي مرت

على أدبنا ألا وهو رثاء المدن.

عنونت هذا العمل ب: (رثاء المدن والممالك بين بغداد والأندلس، دراسة بين سعدي الشيرازي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ وأبي البقاء الرندي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ).

وتم توزيع العمل إلى مقدمة و ثلاثة فصول وثمانية عشر مبحثاً وخاتمة.

وكانت الخطة على النحو التالي:

الفصل الأول: انهيار الذات العربية، وقد قسمته إلى مبحثين، أما المبحث الأول فعنوانه سقوط بغداد، الذي قُسم إلى ثلاثة أقسام،أ- الإرهاصات، ب - الأحداث الكبرى، ج - السقوط. وكان الهدف من التقسيم هو مراعاة الترتيب والتنظيم في سرد المعلومات التاريخية، وإيجازها بقدر الإمكان، والوقوف على الأحداث التاريخية المهمة دون التوغل في غياهب التاريخ المتشابكة، فكان القسم الأول – وهو الإرهاصات – تمهيداً، و يتحدث عن حال الدولة من الناحية السياسية والاجتماعية قبيل سقوطها، ثم الأحداث الكبرى للسقوط والأحداث التي صاحبته.

المبحث الثاني: سقوط الأندلس، وقسمته أيضا إلى، أ- الإرهاصات، ب- الأحداث الكبرى، ج - سقوط الأندلس، وتحدثت فيه عن أسباب سقوط الأندلس والتداعيات، مركزة على الناحية التاريخية والسياسية، في مرحلة ملوك الطوائف بالأندلس، بالوصول إلى معرفة الأسباب العامة لسقوط الأندلس، مع التركيز على الأحداث التاريخية الكبرى.

الفصل الثاني: رثاء المدن والممالك، الموضوعات الفاعلة.

قسمت هذا الفصل إلى مباحث، المبحث الأول الدين، وجاء كذلك مقسماً إلى: أ- الدين الفاتح، ب- الدين المؤسس، ج- الدين الغريب، ومهدنا له بكلمة لمعنى الدين ودوره في حياة الإنسان وأنه أخرج البشرية من الظلمات إلى النور، ودوره في عملية الفتوح الإسلامية ونشر الدين، ورقي الإنسان في ظل الحضارة الإسلامية، ثم كان الدين الفاتح الذي تحدثنا فيه عن فتح الثغور وتحرر الحضارات وركوب الخيل وحمل السيوف في سبيل العز والسلطان وذلك انطلاقاً من القصيدتين. كان الدين المؤسس الذي تحدثنا فيه عن أسس ازدهار الحضارة، وكيف كانت رؤية الشاعرين للدين المؤسس في القطرين، مع التركيز على القوة والعزة في الدين المؤسس، وما أصاب الدين بعد السقوط من تغرب وما يرمز إليه من (محاريب) و(أم القرى) وبكاء الحنيفية. المبحث الثاني المواطنة، وضم الموضوعات الآتية: أ- المواطنة الهوية، ب- المواطنة الضائعة، ج- المواطنة المهزومة.

ظهرت المواطنة في قصيدتي الرثاء بأكثر من شكل، وجاءت القصيدتان تعبيراً واضحا عما حل بالديار الإسلامية سواء في المشرق أو المغرب، ولهذا كان التطرق للمواطنة من الموضوعات المهمة التي فرضت نفسها في قصيدتي الشاعرين، فالمواطنة الهوية تبين ما كانت عليه قبل السقوط ؛ فبالرغم من تدهور الحال الداخلية في القطرين إلا أن الهوية هوية إسلامية قوية، ثم المواطنة الضائعة ودورها في سقوط القطرين وما كان هناك من فتن ودسائس،استخرجناها من الأبيات واستنبطناها من وراء الألفاظ.

المبحث الثالث: الغربة وضم الموضوعات الآتية: أ- غربة الزمان، ب- غربة المكان،ج- غربة الإنسان. وفي هذا المبحث ذكرت معنى الغربة ودواعيها في قصيدتي الشاعرين بصورها الثلاث، غربة الزمان و غربة المكان وغربة الإنسان فكل محور مؤثر في الآخر، ولكن الرؤية كانت موحدة وهي، رؤية المعاناة والضياع.

أما في الفصل الثالث: رثاء المدن والممالك، الموضوعات المتفاعلة.

ضم أهم الموضوعات المتفاعلة، **المبحث الأول:** الزمن وضم الموضوعات الآتية: أ- زمن بناء الذات، ب- زمن انشغال الذات، ج- زمن غربة الذات. فالزمن لا يأتي مستقلا عن الذات، فهي من أقوى الموضوعات المتفاعلة، وقد مرت بالمراحل الثلاث المذكورة بتسلسل زمني، ففي هذا المبحث بينت كيف أن الزمن كان متغيراً بالنسبة للذات؛ فالزمن لا يمكن إدراكه بدونها فهو متحول من بناءٍ للذات إلى انشغالها به وصولا إلى غربتها مع التركيز على الفجيعة في التحول.

المبحث الثاني: المكان، ونظرنا إليه من زوايا ثلاث، هي:أ- المكان الحلم ب- المكان الوطن، ج- المكان الطلل. تم فيه تحليل أهمية المكان بصفته عنصراً رئيساً من عناصر الموضوعات المتفاعلة، فقد أثر المكان تأثيراً واضحا في الذات، ونعني بالمكان الأرض والوطن، ولهذا كان تقسيمه إلى ثلاث مراحل أساسية مر بها المكان وتحدث عنها الشاعران، وهي المكان الحلم والمكان الوطن والمكان الطلل، بينت من خلالها الحالة الوجدانية للإنسان الذي عاصر المراحل الثلاثة للمكان، فالمكان الحلم كان رغبة في عودة الأمجاد السابقة، والمكان الوطن كان الارتباط وثيقاً بالأرض والعروبة المتأصلة بالوطن، أما المكان الطلل فقد كان تعبيراً صادقا عن وصف أطلال أرض وملامح وطن وعقيدة حل محلها الخراب والدمار.

المبحث الثالث: الإنسان من زوايا ثلاث، هي: أ- الإنسان الباني، ب- الإنسان الهادم، ج- الإنسان الضائع. وقد مهدت له بالحديث عن دور الإنسان على هذه الأرض، وبينت من خلال أبيات القصيدتين التي تلائم هذا الموضوع عز السلطان الذي كان يتمتع به الإنسان الباني، ثم كان الحديث عن الإنسان الهادم الذي ابتعد عن مبادئه وأصبح عبداً لرغباته، فدفع الثمن غالياً، أما الإنسان الضائع فهو الذي تحمل نتائج تهور الهادم، وتجرع المر والألم والقهر والتشرد والضياع. ثم أنهيت

البحث بخاتمة ذكرت فيها نتائج البحث. وأنوه بأن عنوان الرسالة لم أستطع تغيير (مقارنة) إلى (موازنة) بسبب القوانين المعمول بها، ولكن بالإمكان تدارك ذلك في طباعتها مستقبلا إن شاء الله.

أما عن الصعوبات التي واجهتني أثناء البحث فتكمن في قلة الكتب والمراجع عن أعمال سعدي الشيرازي، مع ندرة ترجمة أعماله الأدبية.

وأخيرا أتقدم بالشكر والامتنان الوافر إلى كلية الدراسات الإسلامية والعربية، وإلى سعادة جمعة الماجد – حفظه الله – على فتح باب الاستزادة من العلم أمام الطالبات.

وإلى الدكتور أحمد رحماني الذي بذل الجهد المضني معي في بداية مشواري في البحث العلمي، وأرشدني إلى الطريق السليم، ووفقت معه في اختيار عنوان البحث.

وإلى الدكتور عبد الرحمن بناني الذي بفضله توسعت مداركي المنهجية، كان المصباح الذي بين خطوط الدرب لأصل إلى الهدف الذي أبغيه.

زميلاتي في قسم الدراسات العليا.

والدي العزيزين وأبنائي، الذين تحملوا انشغالي عنهم.

فشكرا لكم جميعاً، وأثابكم الله عني كل الجزاء.

والحمد لله أولا وأخراً

الفصل الأول

انهيار الذات العربية

المبحث الأول

سقوط بغداد

أ: الإرهاصات

ب: الأحداث الكبرى

ج: السقوط

سقوط بغداد

أ - الإرهاصات:

يتفق معظم المؤرخين المحدثين على أن سقوط بغداد لم يكن حدثا مفاجئا بل إنه جزء من خطة مرسومة من قبل قيادة المغول للاستيلاء على الجزء الممتد من نهر جيحون إلى النيل من دار السلام،ولم تكن قوة المغول تلك القوة التي لا تقهر فقد قاست من الهزيمة على يد الخوارزمية أكثر من مرة.[١]

ولهذا لابد لنا أن نبين حال العالم الإسلامي والخلافة الإسلامية قبيل الغزو المغولي.كان العالم الإسلامي في مطلع القرن السابع الهجري يتمثل - بالإضافة إلى الخلافة - في مجموعتين من الإمارات شرقي الخلافة وغربيها؛ ففي الشرق كانت الإمارات الخوارزمية والغورية وفارس وأذربيجان بالإضافة إلى الإسماعيلية، التي كان موقفها من الخلافة وارتباطها بالإسلام غير مستقر، وكانت الخوارزمية قد أصبحت أكبرها قوة وأكثرها سعة.[٢]

وكانت هذه الإمارات نظريا تستمد شرعية بقائها من رضا الخلافة وتأييدها لها باعتبار الخليفة العباسي إمام المسلمين وصاحب السيادة الروحية والزمنية على جميع البلاد الإسلامية، أما في الغرب فقد كانت الإمارات الأيوبية وسلاجقة الروم وأتابكة الموصل واربل، وكان موقف هذه الإمارات وعلاقتها بالخلافة يختلف عن تلك الإمارات الشرقية، وبقدر ما كانت الخلافة تجد صعوبة في فرض ولائها الأسمى على الشرقية منها حتى اضطرت في بعض الأحيان إلى استخدام جيوشها، أو اللجوء إلى أساليب غير طبيعية معها، كان عملها مع الإمارات الغربية سهلا، لأنه كان يقوم على الاعتراف الطبيعي لهذه الإمارات بشرعية حقوق الخلافة وسلطانها عليه[٣].

١- أ. د فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ٣٣٤ هـ/٩٤٦ م ---- ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م ص: ١٢٦.

٢- د. محمد صالح داود القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء في النجف – العراق، ١٣٩٠ هـ – ١٩٧٠ م، الصفحات: ٦٨ و ٦٩ و ٧١.

٣- (المرجع السابق)، الصفحات ٦٨و٦٩و٧١.

بغداد وأسباب ضعفها:

كانت بغداد في ظل حكم العباسيين من أكبر مدن الشرق قاطبة إن لم تكن أكبرها عامة، فقد كانت حاضرة لعالم مترامي الأطراف يحج إليها القاصي والداني وكانت دار علوم كما كانت دار سياسة.[١] وبالرغم من الرخاء المادي والسياسي اللذين كانت تتمتع بهما بغداد إلا أن الضعف قد دب في أوصالها وسار الوهن في شرايينها مسرى الدم ؛ مما ساعد على سقوطها على يد المغول، فقد سرت موجة الضعف في الخلافة العباسية منذ أيام المعتصم وانتهى بوقوع الخلافة تحت سيطرة الأجانب من بويهيين وسلاجقة، وهي وإن تمكنت بعد ذلك من استعادة السلطة والتخلص من الأجانب والاستقلال بأمورها (٥٥١ – ٦٥٦ هـ) فإن ذلك لم يكن سوى استيقاظ فجائي يتبعه الزوال كما يحدث حين يتوهج المصباح قبل انطفاء نوره.

ولا يمكننا أن ننسب زوال الخلافة العباسية من بغداد إلى سبب واحد، بل يرجع هذا الزوال إلى عدة أسباب.

ومن تلك الأسباب: كانت الخلافة العباسية قبيل حملة «هولاكو» قد طال عليها الزمن وأدركتها الشيخوخة، وبدت عليها مظاهر الانهيار، وفي الحقيقة كانت جذور الضعف تمتد في جسم هذه الدولة قبل ذلك بمدة طويلة، بسبب سيطرة الفرس أولا ثم غلبة الأتراك ثانيا، منذ أن فتح لهم الخليفة المعتصم الباب على مصراعيه فاستأثروا بالنفوذ وطغوا على سلطان الخلفاء، و في ذلك الوقت كان الخليفة المستعصم بالله آخر الخلفاء العباسيين (٦٤٠ – ٦٥٦) وكان كما يقول ابن طباطبا: رجلا متديناً، لين الجانب، سهل العريكة، سهل الأخلاق ضعيف الوطأة، إلا أنه كان مستضعف الرأي، ضعيف البطش، قليل الخبرة بأمر المملكة، مطموعا فيه، غير مهيب في النفوس، ولا مطلع على حقائق الأمور، وكان يقضي أكثر وقته في سماع الأغاني، والتفرج على المساخرة، وفي بعض الوقت يجلس في خزانة الكتب جلوسا ليس فيه كبير فائدة، وكان أصحابه مستولين عليه، وكلهم جهال من أراذل العوام.و كانت الأخبار تصل الخليفة تباعا باقتراب جيوش المغول، ومع ذلك لم يتخذ الأهبة لمواجهتهم قبل أن يستفحل خطرهم، أو على الأقل يداهنهم ويصانعهم، كما صنع غيره من أمراء الولايات. ولم يكن زمام الأمور في بغداد مركزا في يد واحدة، بل كانت هناك سلطات مختلفة متعارضة كل منها يجور على السلطة الأخرى ويتدخل في عملها، ولم تكن هناك رابطة تجمع الحكام ومن بيدهم تصريف شئون الدولة، بل كانوا متنازعين متباغضين كل منهم ينقم على الآخر ويدبر ضده المؤامرات، ويسفه رأيه عند الخليفة، و كان سكان بغداد من أهل السنة والشيعة والمسيحيين واليهود، وكان هؤلاء جميعا في خلاف دائم حول المسائل الدينية، كما كانوا يختلفون في الميول السياسية، ولا شك أن مثل هذه الحالة كثيرا ما كانت تثير الفتن والمنازعات بين السكان.[٢]

١- د. محمد موسى هنداوي، سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية عصره، حياته، ديوانه البوستان، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥١م، ص ٥٣.
٢- د. فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ من جنكيز خان إلى هولاكو، دار القلم، الصفحات من ١٥٥ إلى ١٥٩.

الأحداث الكبرى:

وهكذا نزلت ببغداد نكبات كثيرة قديما وحديثا، نكبات غزو، ونكبات فتن داخلية ونكبات حروب بين طامعين، ونكبات غرق، ولكن نكبتها العظمى التي دمرتها وحولتها إلى ركام وخرائب، وأجرت عليها طرقاتها بالدماء، وسيقت حرائرها سبايا هي تلك النكبة الدامية التي حلت بها من الإعصار المغولي بقيادة خانها السفاح هولاكو.[١]

وقد سبق سقوط بغداد دار السلام على يد «هولاكو» تحركات وحروب لدويلات وإمارات واقعة تحت حكم العباسيين، ومن ثم مراسلات داخلية وخارجية وصولا إلى حصار بغداد، فكان سقوط الدولة الخوارزمية – بداية – على يد المغول.

ظهر أمر المغول في الدولة الإسلامية قبل سقوط بغداد بفترة من الزمن، أي منذ سنة ٦١٦ هـ، «ولكنَ السد الذي وقفَ حاجزاً بينَ المغول والعراق هوَ الدولةُ الخوارزمية».[٢] وأصبح حضورهم واضحا منذ أن استطاعوا أن يحطموا الدولة الخوارزمية القوية الواسعة. فشتتوا عساكرها في حروب عديدة واجتاحوا أقاليمها، حتى كانت حصون المدن وقلاعها تتهاوى أمام جبروتهم، فيعصفون بها عصفا لم يشهد له التاريخ نظيرا، ولم تصمد دولة الخوارزميين أمام قوتهم العظيمة زمنا طويلا، فاختفت من الوجود في سنة ٦٢٨ هـ، وكأنها لم تكن شيئا، وبزوال هذه الدولة صار الطريق إلى العراق مفتوحا أمام الجيوش المغولية.[٣]

و «كانَ اختفاءُ الخوارزميين من الميدان اختفاءً لكلِ مقاومةٍ حقيقية.. إذ سرعانَ ما تقدمَ الأمراء المحليون بالطاعةِ والولاءِ للمغولِ..»[٤] وقائدهم «جنكيز خان» الذي استطاع سنة ٦١٦ هـ أن يحطم قوة خوارزم شاه علاء الدين محمد الذي فر إلى إحدى جزر بحر قزوين ومات هناك.[٥]

ثم جاء دور قلاع الإسماعيلية، حيث توجهَ هولاكو سنة ٦٥١ هـ - ١٢٥٣ م بجيشٍ كبيرٍ وقوي لإخضاعِ الإسماعيلية واحتلالِ قلعتهم (آلموت)[٦]، وأصبح توتر العلاقة واضحا بين الخلافة العباسية والمغول عند هذه المرحلة،وذلك بعد طلب هولاكو من الخليفة أن يعينه في القضاء على الإسماعيلية حين قدم «هولاكو» قلاع الإسماعيلية بالجبل والتقى بهم وطال عليهم الأمد، ورأى في القضاء على تلك

١- جمال الدين الآلوسي، بغداد في الشعر العربي من تاريخها وأخبارها الحضارية، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، ص ١٣٦.
٢- انظر، أ. د فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة (مرجع سابق)، ص: ١٢٠.
٣- عبد الكريم توفيق العبود، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ٥٤٧- ٦٥٦ هـ، وزارة الإعلام – بغداد ١٩٧٦م، ص: ١٥١
٤- انظر، القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، (مرجع سابق)، الصفحات ٦٨و٦٩و٧١.
٥- أ.د فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة (مرجع سابق)، ص ١٢٠.
٦- ماجد حسن قاسم الطائي بإشراف أ.د محمد باقر الحسيني، تأريخ العراق الأعلامي منذ الاحتلال المغولي لبغداد وحتى نهاية الاحتلال العثماني، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي،١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، ص ٣٨.

الطائفة مصلحة مشتركة بينه وبين الخلافة و طلب من الخليفة مددا لينجز القضاء عليهم.[1] وحين استقر هولاكو في كش جنوبي غربي سمرقند راسل الخليفة المستعصم سنة ٦٥٣ هـ وطالبه بالتعاون معه للقضاء على الإسماعيلية، إلا أن الحاشية لم يمكنوا الخليفة من الاتصال بهولاكو وشككوا بنواياه.[2]

ولما شاور الخليفة أتباعه، حذروه من أن يقدم على هذا العمل، وأدخلوا في روعه أن هولاكو يريد بهذه الوسيلة أن تخلو بغداد من الجيش، حتى يسهل عليه أن يستولي عليها في أي وقت يشاء دون أن يجد صعوبة أو مشقة، فوافقهم وامتنع عن إرسال المدد إلى هولاكو.[3] وهكذا نرى أن «الخليفةَ لم يستجبْ لهذا النداء، وتخاذلَ عن المعونةِ، وأفسدَ عليهِ الرأي جماعةٌ من حاشيتهِ، ورجالِ دولتهِ، الذين لم يكونوا ليحسنوا سياسةً وتدبيراً.»[4]

و بعد أن حقق هولاكو هدفه الأول وهو القضاء على طائفة الإسماعيلية، سار لتحقيق هدفه الثاني وهو القضاء على الخلافة العباسية في بغداد.[5] وما أن جاءت نهاية سنة ٦٥٤ هـ /١٢٥٦ م، حتى كان هولاكو قد انتهى من المرحلة الأولى من مراحل حملته العسكرية ضد الأراضي الواقعة إلى الغرب من حدود الإمبراطورية المغولية ؛ وذلك عندما تم تدمير الإسماعيليين، وأنهى كيانهم، كقوة مستقلة قائمة بذاتها في المنطقة.[6] وقامت المراسلات بين المغول والخلافة بعد سقوط الإسماعيلية، حيث إن هولاكو بعد أن انتهى من الإسماعيلية تفرغ للخلافة، وأنه قبل أن يبدأ زحفه نحوها كان قد بدأ في مراسلتها لكي يعرف حقيقة موقفها منه ومدى استعداداتها له.[7]

ولما لم يسعف الخليفة هولاكو بما طلب في القضاء على هذا العدو المشترك، وتجاهل الأمر بعث إليه هولاكو خطابا آخر يعتب عليه ويحذره مغبة العداء والمناوأة، ويطالبه بالاستماع لنصائحه إن رغب أن يظل رئيسا في دولته، وإلا فسيرى نهايته.[8] ولذلك نراه بعد أن قضى على الإسماعيليين، سار المغول متجهين غربا إلى الأراضي العراقية، وعندما وصل هولاكو إلى همدان أرسل رسالة تهديدية (مملوءة بالتعجرف والكبرياء والصلافة) ثانية إلى الخليفة[9]. وذلك في العاشر من شهر رمضان سنة ٦٥٥ هـ- ١٢٥٧ م.[10]

١- محمد موسى هنداوي، سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية..(مرجع سابق)، ص ٢٥.
٢- أ.د فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة (مرجع سابق)، ص ١٢٦، و انظر كذلك «سقوط الدولة العباسية»، للدكتور سعد بن حذيفة محمد مسفر الغامدي،نشر أبو حذيفة محمد، الرياض ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص: ٢٧٢.
٣- الصياد، المغول في التاريخ..(مرجع سابق)، ص١٦٠
٤- هنداوي، سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية،(مرجع سابق) ص: ٢٥
٥- الصياد، المغول في التاريخ..(مرجع سابق)، ص ١٥٥.
٦- د. سعد بن محمد حذيفة مسفر الغامدي، سقوط الخلافة العباسة، نشر أبو حذيفة محمد، الرياض، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص.٢٨٩.
٧- القزاز،الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية،(مرجع سابق)، ص ٩٧.
٨- هنداوي، سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية، (مرجع سابق)، ص ٢٥.
٩- الغامدي، سقوط الدولة العباسية، (مرجع سابق)، ص ٢٧٣.
١٠- ذكر السنة كذلك أ. د فاروق عمر في «الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة» ص ١٢٦ وكذلك د. فؤاد عبد المعطي الصياد في «المغول في التاريخ»، ص ١٦٠ و الدكتور محمد صالح داود القزاز في «الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية»، ص ٩٨.وكذلك في الرسالة التي تقدم بها ماجد قاسم الطائي (تأريخ العراق الأعلامي من الاحتلال المغولي لبغداد وحتى نهاية الاحتلال العثماني)، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص ٣٩.

يقول هولاكو في هذه الرسالة: لابد أنه قد وصل إلى سمعك على لسان الخاص والعام ما حدث للعالم على أيدي الجيوش المغولية منذ جنكيز خان،وعلمت أية مذلة لحقت بأسر الخوارزميين والسلاجقة وملوك الديلم والأتابكة وغيرهم ممن كانوا أرباب العظمة وأصحاب الشوكة، ومع ذلك لم يغلق باب بغداد قط في وجه أية طائفة من تلك الطوائف التي تولت ا السيادة، فكيف يغلق هذا الباب في وجوهنا رغم مالنا من قدرة وسلطان؟ وقد نصحناك قبل هذا، والآن نقول لك: تجنب الحقد والخصام والضغينة، ولا تحاول أن تقف في سبيلنا لأنك ستتعب نفسك عبثا، ومع هذا فقد مضى ما مضى، فعليك أن تهدم الحصون وتطم الخنادق وتسلم ابنك المملكة[1]، ثم تتوجه لمقابلتنا. وإن كنت لا تريد ذلك فأرسل إلينا الوزير وسليمان شاه والداوادار ليوصلوا رسالتنا إليك بغير زيادة ولا نقصان، فإذا أطعت أمرنا فلا حقد ولا ضغينة ونبقي لك ولايتك وجيشك ورعيتك، وأما إذا لم تنتصح، وسلكت طريق الخلاف والجدال، فأعد جيشك وعين جبهة للقتال فإننا مستعدون لمحاربتك، واعلم أنني إذا غضبت عليك، وقدت الجيش إلى بغداد فسوف لا تنجو مني ولو صعدت إلى السماء أو اختفيت في الأرض، فإذا أردت أن تحفظ رأسك وأسرتك فاستمع لنصحي بمسمع العقل والذكاء وإلا فسأرى كيف تكون إرادة الله.[2]

وبعد ورود رسالة هولاكو على الخلافة العباسية، مرة ثانية انقسمت حاشية الخليفة على نفسها ففي الوقت الذي أشار فيه الوزير ابن العلقمي بضرورة بذل الأموال والهدايا لهولاكو اعترض قائد الجيش على ذلك واتهم الوزير بالتقرب من هولاكو، وهكذا أسقط في يد الخليفة الضعيف الذي لم يفعل شيئا إلا إرسال قليل من الهدايا إلى هولاكو مع رسالة يعظه فيها ويذكره بالمصير السيئ الذي تعرض له من أراد للخلافة السوء.[3] وسوف نرى من خلال رد الخليفة على رسالة هولاكو، وكيف كان الموقف السلبي له، وما دل عليه من عدم رجاحةٍ في الرد، وإذعانٍ للمشورة الخائبة تمكنت الخليفة حيرة، واضطربت سياسته وتردد مشيروه وضيق هولاكو الخناق عليه، بعد أن انتهى وحده من القضاء على الإسماعيلية، ولم يفد في إغرائه بذل المال سخيا، أو إرسال الهدايا الثمينة، ثم كان أن أرسل الخليفة أخيرا – لما لم تجد هذه الوسائل جميعا – بخطاب إلى هولاكو، ردا على خطابه، يجمع فيه بين اصطناع القوة، واتكاله على أمور لا يملك توجيهها.[4]

١- وأضاف د. سعد بن محمد حذيفة مسفر الغامدي في كتابه «سقوط الدولة العباسية» أن هولاكو قد ذكر من يجب أن ينوب عنه إن لم يستطع المثول أمامه «.. فيجب أن ترسل بدلا عنك واحدا من الثلاثة الأشخاص التالية أسماؤهم: ابن العلقمي (الوزير)، أو الدوادار الصغير، أو سليمان شاه..»
٢- الصياد، المغول في التاريخ..(مرجع سابق) ص: ١٦١.
٣- أ.د فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة،(مرجع سابق) ص ١٢٦، وكذلك يبين «سلمان التكريتي» الانقسام في حاشية الخليفة وتفرقهم في الرأي، وذلك في كتابه (بغداد مدينة السلام وغزو المغول)، مكتبة الشرق الجديد، بغداد ١٩٨٨م، ص ١٤٢، «ولما فتح هولاكو تلك القلاع – أي قلاع الإسماعيليين – أرسل رسولا آخر إلى الخليفة و عاتبه على إهماله تيسير النجدة، فشاور الوزير فيما يجب أن يفعلوه، فقال: لا وجه غير إرضاء هذا الملك الجبار، ببذل الأموال والهدايا والتحف له ولخواصه،وعندما أخذوا في تجهيز ما يسيرونه من الجواهر والمرصعات والثياب والذهب والفضة والمماليك والجواري والخيل والبغال والجمال، قال الدوادار الصغير وأصحابه، إن الوزير إنما يدبر شأن نفسه مع التتر وهو يروم تسليمنا إليهم، فلا نمكنه من ذلك..»
٤- هنداوي، سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية، (مرجع سابق)، ص ٢٥.

رد الخليفة بالرفض على هذا التحذير الرسمي من المغول، وعارض إمبراطوريتهم بالسيادة الروحية للخلافة الإسلامية فقال: يأيها الشاب الغر الذي لم يخبر الأيام بعد، والذي يتمنى قصر العمر والذي أغرته إقبال الأيام ومساعدة الظروف فتخيل نفسه مسيطرا على العالم، وحسب أمره قضاء مبرما وأمرا محكما، لماذا تطلب مني شيئا لن تجده عندي ؟ ألا يعلم الأمير أنه من الشرق إلى الغرب ومن الملوك إلى الشحاذين، ومن الشيوخ إلى الشباب ممن يؤمنون بالله ويعتنقون الأديان، كلهم عبيد هذا البلاط وجنود لي ؟ إنني حيثما أشير بجمع الشتات سأبدأ بحسم إيران، ثم أتوجه منها إلى بلاد توران، وأضع كل شخص في موضعه، وعندئذ سيصير وجه الأرض مملوءا بالقلق والاضطراب، غير أني لا أود الحقد والخصام، ولا أن اشتري ضرر الناس وإيذاءهم كما أنني لا أبغي من وراء تردد الجيوش أن تلهج ألسنة الرعية بالمدح والقدح خصوصا وإنني مع الخاقان وهولاكو خان قلب واحد ولسان واحد،فإذا كنت مثلي تزرع بذور المحبة فما شأنك بخنادق رعيتي وحصونهم ؟ ! اسلك طريق الود، وعد إلى خرسان، وإن كنت تريد الحرب والقتال فلا تتوان لحظة، ولا تعتذر، فإن لي ألوفا مؤلفة من الفرسان والرجالة على أهبة الاستعداد للقتال. وفي رسالة الخليفة، نجد أنه هو الآخر كان حريصا على التهديد والوعيد أكثر من حرصه على المسالمة والمهادنة، وربما كان يظن أن ذلك قد يرعب هولاكو ويجعله يفكر مليا قبل أن يقدم على خطوته، ولكنه كان واهما لأنه لم يكن له سند حقيقي من قوة حتى يمكنه أن يقف هذا الموقف المتشدد من قوم محاربين جبابرة، دوخوا الممالك، وقوضوا العروش في مدة قصيرة من الزمن، ثم إنه إذا كان يعتمد على العالم الإسلامي الذي يدعي أنه رهن إشارته، فقد أخطأه التوفيق كذلك، لأن المستعصم كان أول من يعلم حقيقة العالم الإسلامي في ذلك الوقت. كان يعلم أنه فقد أهم أجزائه، وأنه لا يزال يعاني الأثرة والأنانية والتفكك والانحلال، فلا يعقل أن يهب لنجدته مهما كانت الأسباب، وكان من الطبيعي إذن ألا تجدي تلك التهديدات، بل يكون لها على العكس أسوأ الأثر في نفس هولاكو، فيصمم قبل كل شيء على فتح بغداد وهذا ما حدث بالفعل.[1]

بطبيعة الحال أججت الرسالة الغضب في نفس هولاكو، وكانت الرسالة الثالثة بعد ذلك بفترة حيث أرسلها مع رسل الخليفة الذين كانوا قد قدموا إليه رده على رسالته السابقة، وفيها تقريع شديد وإنذار له إما بالاستسلام أو الاستعداد للحرب «فإنني متوجهٌ إلى بغداد بجيش كالنمل والجراد»[2] و «إنَ الخليفةَ ليست لديه كفاءةٌ قط، إذ أنه معنا كالقوس الأعوج، فلو أمدني اللّه الأزلي بعونه، فسوفَ أجعلهُ مستقيماً كالسهم ثم أرسل الخليفة رسالته الثانية الطويلة مع هدية صغيرة،منها، إذ إنَ كلَ ملكٍ، قصدَ أسرة بني العباس ودارَ السلام بغداد كانت عاقبتهُ وخيمة.»[3]

١- الصياد،المغول في التاريخ.. (مرجع سابق)، ص ١٦٢ و١٦٣.
٢- انظر، القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، (مرجع سابق)، ص ٩٨، وانظر «المغول في التاريخ من جنكيز خان إلى هولاكو خان» للدكتور الصياد،، ص ١٦٣.
٣- انظر، سلمان التكريتي، بغداد مدينة السلام وغزو المغول، مكتبة الشرق الجديد، بغداد ١٩٨٨م، ص ٢١٨. باختصار

يقال بأن هولاكو عندما سمع رسالة الخليفة تلك ثارت ثائرته وغضب وصمم بأن يشق طريقه إلى العاصمة العباسية عنوة واقتدارا، وأجاب على رسالة المستعصم برسالة أخرى قائلا له:«اذهب وابنِ لكَ مدناً عاليةً من الحديدِ، وأسواراً من الفولاذ، واصنع منها الأبراج والهياكل، واجمع لكَ جيشاً من المردة والشياطين، ثم تقدم إلي للخصام والنزالِ ؛ فإنني سوفَ أطوحُ بك، ولو كنتَ في السماء، وسأقذفُ بكَ عنوةً واقتداراً إلى أفواهِ السباعَ».[1]

وهكذا ومن خلال المراسلات التي كانت بين الطرفين نرى غفلة الخلافة عن الموت القادم من الشرق، وكيف تحكمت الأهواء الشخصية والأحقاد في قرارات الوزراء وأصحاب الرأي، بالإضافة – كما ذكرنا سابقا في أسباب ضعف الخلافة – إلى ضعف عزيمة الخليفة وعدم تمكنه من اتخاذ قرار كان من الممكن أن يقي العالم الإسلامي ما لقيه من المغول، وكشفت أجوبة الخليفة على هذه الرسائل الغفوة التي كان غارقا فيها، وعجز الحاشية المحيطة به والمنقسمة على نفسها عن إمداده بالرأي الصالح والعمل الايجابي، فهو يهدد هولاكو بملوك الأرض الذين سيهبون من الشرق والغرب للدفاع عنه عند أول إشارة منه، وبالقدسية التي ترعى الخلافة وتلحق المكر بمن يبتغي الشر لها، ثم يعدد له مصير أولئك الذين سبقوه.[2]

ويبدو أن الخليفة العباسي قد صده الحزم والاستعداد لهذا الخطر اعتماده على مكانته الدينية، وأمجاد أسرته ![3] تلك كانت مقدمات سقوط حاضرة الإسلام ومدينة السلام بغداد، ينفطر قلب المسلم كيف أن أصحاب القرار في ذلك الوقت قد تهاونوا في الحفاظ عليها، وكيف سمحوا بأن تضيع معالم قد ضحى غيرهم من أجل أن تقوم؟

ولعل هولاكو كان يقوم في نفسه تقدير شخصي لتلك المدينة العظيمة التي حملت لواء المدنية والحضارة زهاء خمسة قرون، والتي جابت سمعتها أقطار المشرق والمغرب على ألسنة التجار الذين يجوبون ربوعه، فيجعل منها قاعدة لحكمه الجديد في مملكته العريضة[4].

١- انظر، الغامدي، سقوط الخلافة العباسية،(مرجع سابق)،ص ٢٧٨ وانظر كذلك «بغداد مدينة السلام وغزو المغزل»، لسلمان التكريتي، مكتبة الشرق الجديد، بغداد ١٩٨٨م، ص: ٢١٨.
٢- القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية،(مرجع سابق) ص ٩٩.
٣- العبود، الشعر العربي في العراق..(مرجع سابق)، ص ١٧٥.
٤- هنداوي، سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية..(مرجع سابق)، ص ٥٣.

ج - السقوط.

الزحف نحو بغداد وسقوطها:

ظل الخطر المغولي يتزايد ويتعاظم يوما بعد يوم، وكان الخليفة المستعصم ضعيفا خليا من الرأي والحزم[١] ولاحظنا كيف توالت الأحداث وبدأ ظهور المغول في العالم الإسلامي من ٦١٦ هـ، إلى سقوط الدولة الخوارزمية في ٦٢٨ هـ، ومن ثم محاصرة القلاع الإسماعيلية في ٦٥١هـ وسقوطها في ٦٥٤ هـ، وصولا إلى مراسلات التهديد والوعيد بين المغول والخليفة في ٦٥٥ هـ. قرر هولاكو التوجه نحو بغداد، وتحرك مرورا بأراض كانت كلها من أعمال الخلافة العباسية، ولم يجد منها مقاومة مما زاد غروره ووحشيته في الزحف نحو بغداد وتهديدها بالاحتلال.[٢] من ناحية أخرى ظلت أمور البلاد تجري على منوال الغفلة والإهمال والأوهام، واستمرت أنظار القوم تتطلع إلى السماء لتنزل عليهم النصر وهم قاعدون غافلون، حتى رحل المغول من همذان سنة خمس وخمسين وستمائة قاصدين بغداد، وصل الخبر إلى الخليفة، فأيقن أن الأمر جد، فاضطرب وحار في الأمر، وجمع رجال دولته واستطلع آراءهم لإيجاد مخرج للنجاة، فإذا هم عاجزون عن إيجاد المخرج المرضي، وأخيرا وصلت عساكر المغول الكثيفة إلى بغداد، وأحاطت بها كإحاطة السوار بالمعصم.[٣]

وعندما تجمعت القوات المغولية حول بغداد اتبع الخليفة طريقة استمالة هولاكو، وأرسل رسلا من كبار وأشهر حاشيته، حتى إنه أرسل معهم ابنه الأكبر، ولكن هولاكو لم يسمع لهم وردهم جميعا وفدا بعد الآخر يجرون أذيال الخيبة والفشل.[٤]

ولكن مثل هذه المفاوضات لاشك تكون فاشلة،لأن الجيش المغولي المحاصر،قد وصل إلى حد التهام اللقمة السائغة التي أمامه.[٥] وبعد المفاوضات الفاشلة وغير المتكافئة أصبح الطريق إلى دخول بغداد ممهداً أمام المغول، وأصبح احتلال بغداد وسقوطها قاب قوسين أو أدنى، وكأنه الوحش المستعد لالتهام فريسته الجاثمة أمامه، الضعيفة بلا حول ولا قوة، المرتقبة لزوالها و المتيقنة لنهايتها.

وأحاط الجيش ببغداد من جميع جهاتها، ثم شرعوا في استعمال أسباب الحصار، وشرع العسكر الخليفي في المدافعة والمقاومة إلى التاسع عشر من محرم، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة سور بغداد من برج يسمى برج العجمي.[٦] ويوم الثلاثاء ٢٢ محرم أحكم الحصار حول مدينة بغداد

١- العبود، الشعر العربي في العراق...(مرجع سابق)، ص ١٧١.
٢- سلمان التكريتي، بغداد مدينة السلام وغزو المغول،(مرجع سابق) ص ٢١٨ و ٢١٩.
٣- العبود، الشعر العربي في العراق...(مرجع سابق)، ص ١٧٦ و١٧٧.
٤- د. مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، مطبعة المكتب الثقافي، الجيزة ١٩٤٧م، الصفحات ١٣٧و١٣٨و١٣٩.
٥- التكريتي، بغداد مدينة السلام وغزو المغول،(مرجع سابق)، ص ٢١٦.
٦- الآلوسي، بغداد في الشعر العربي..(مرجع سابق)، ص.١٣٧

واستمر حتى نهاية هذا الشهر.[١] ولم يطل حصار بغداد أكثر من أسبوع حتى انهارت معنويات الخليفة ومقاومة سكانها فأخذوا يستسلمون للمغول بعد مداولات ومفاوضات قام بها الوزير وأبناء الخليفة وبعض كبار الحاشية[٢].

وذلك يوم الأحد ٤ صفر سنة ٦٥٦ هـ، حيث استسلم الخليفة وسلم بغداد للمغول بلا قيد أو شروط، بعد أن وعده هولاكو بالأمان.[٣]

وهكذا أصبحت عاصمة الخلفاء العباسيين في ملك الغزاة المغول، الذين اجتاحوها بقواتهم في جميع جهاتها، حيث شملوا بالحديد والنار كل شبر من المدينة المنكوبة، وأخذوا يقتلون الأهالي، ويحرقون المنازل، وينشرون الذعر والهلع والدمار في كل ركن منها، مع تجاهل تام لكل المبادئ، ودون رحمة لكبير مسن أو شفقة على صغير أو رضيع، فقد عاملوهم سوية، رجالا ونساء، كبارا وصغارا، مقاتلين وعزلاً من السلاح، من أصحاب المذهب السني والشيعي على السواء، ومما زاد في تثبيط همة سكان بغداد، واستسلامهم للعدو عزلا من السلاح، وما كان قد أعلنه خليفتهم، الذي كان أسيرا لدى هولاكو، في منشوره الذي ألقاه عليهم، بأنه يجب عليهم أن يسلموا أسلحتهم إلى المغول، وأن يبدؤوا بالخروج من بغداد، لذلك خرج أهالي المدينة أفواجا وجماعات، يتدفقون من خلال بوابات العاصمة ليلاقوا حتفهم ؛ حيث كانوا يقدمون إلى المقصلة المغولية، فيذبحون كما تذبح الشياه، بمجرد خروجهم من البوابات التي طلب منهم الخروج منها، وهكذا أخليت المدينة تقريبا من معظم ساكنيها، كما شملها الخراب وعمها الدمار.[٤] وعند دخول جند هولاكو وضع السيف في بغداد يوم الاثنين خامس صفر، ومازالوا في قتل ونهب وتعذيب الناس بأنواع العذاب، فلم يبق بين أهل بغداد ومن التجأ إليهم من أهل السواد إلا القليل.[٥]

وعندما دخل هولاكو مدينة بغداد، قصد قصر الخلافة و جلس في الميمنة، واحتفل مع الأمراء بذلك اليوم، وأمر بإحضار الخليفة وقال له: أنت المضيف ونحن الضيوف ؛ فيجب عليك أن تقوم بواجب الضيافة، فصدق الخليفة قوله، وكان يرتعد فرقا وخوفا، واستولت عليه الدهشة، واعتراه الذهول لدرجة انه لم يعد يعرف أين وضع مفاتيح خزائنه، فأمر بكسر الأقفال وإخراج ألفين من الثياب وعشرة آلاف دينار ونفائس ومرصعات وجواهر عديدة، قدمها هدية لهولاكو الذي لم يعر تلك الأشياء التفاتا، ووزعها على أتباعه، ثم قال للخليفة: هذه الأموال التي تملكها على سطح الأرض أمرها واضح، وهي تعد غنيمة فتكون من نصيب جنودنا، والآن نريد أن تكشف لنا عن الأموال والدفائن، فما

١- د. فؤاد عبد المعطي الصياد،المغول في التاريخ من جنكيز خان إلى هولاكو خان، دار القلم، ص ١٦٦.
٢- القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية،(مرجع سابق) ص١٠٠.
٣- الصياد، المغول في التاريخ..(مرجع سابق) ص ١٦٧.
٤- الغامدي، سقوط الدولة العباسية، (مرجع سابق)، ص ٢٣٧ وذكر أيضا في" محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول" للدكتور. مصطفى طه بدر، مطبعة المكتب الثقافي، الجيزة ١٩٤٧م، ص١٤١
٥- الآلوسي، بغداد في الشعر العربي..(مرجع سابق)، ص ١٣٧.

هي وأين توجد ؟! عندئذ اعترف الخليفة بوجود حوض مملوء بالذهب وسط القصر، فلما حفروا ذلك المكان، وجدوه مملوءا بالذهب الإبريز، وكانت كل قطعة منه تزن مائة مثقال.[١] ولم يقف عند هذا الحد بل أنه جرد القصر من سبعمائة جارية كانت به وألف خصي ولم يدع للخليفة إلا مائة جارية فقط من هذه الجواري![٢]

وهكذا بعد السبي والقتل والدمار، أخذت تلك الثروة الهائلة التي كشف عنها الخليفة، والتي نهبها هولاكو ورجاله، ونقلت إلى أذربيجان حيث خزنت في قلعة خصصت لهذا الغرض.[٣] ودخل التتار مدينة بغداد وبذلوا السيف في أهلها، واستمر القتل والسبي بضعة وثلاثين يوما، فلم يسلم منهم إلا من اختفى، فأمر هولاكو بعد القتلى، فكانوا ألف ألف وثمانمائة ألف وكسرا، وبذل السيف في بغداد، فقتل كل من ظهر، ولم يسلم إلا من اختفى وقتل من كان في دار الخلافة من الأشراف، ولم يسلم إلا من هرب أو كان صغيرا، فانه أخذ أسيرا، واستمر القتل أربعين يوما.[٤]

ولم يكتف هولاكو بذلك بل أمر بردم الخنادق وإزالة أسوار المدينة، وأمر جنوده أن يدخلوها من كل الجهات، ووزعوا أنفسهم على محلاتها تاركين لأنفسهم العنان فخربوا المساجد ليحصلوا على قبابها الذهبية وهدموا القصور بعد أن جردوها مما بها من التحف الفارسية والصينية النادرة وخربوا المكاتب، وأتلفوا الكتب التي بها إما بإحراقها أو برميها في دجلة، كما قتلوا معظم أهل المدينة دون عطف أو تقدير لعالم أو شيخ أو طفل أو امرأة، بل كان استهتارهم بالأنفس بالغا أشده.[٥]

فيروى أن أحدا من أهل بغداد دخل زقاقا وقتل أربعين طفلا شفقة منه ورحمة حين علم أن أمهاتهم قتلن من قبل.[٦] وبعد أن أتم هولاكو وجيشه المغولي التتري قتل أهالي بغداد، واستنفدوا كل رغباتهم في إهدار الدماء العربية الزكية، التفتوا إلى بغداد، عمرانها ومعالمها الحضارية ووسائل الحضارة الإنسانية، فأمر هولاكو قادته وجيوشه بعد القتل والذبح نهب بغداد، فعاث جند المغول والتتار فسادا في المدينة العذراء، التي ما كفوا عن ضربها بالمنجنيقات إلا بعد أن رأوا أكثر مساكنها وأسواقها أصبحت ركاما، حتى المساجد والجوامع والمدارس والمكتبات وأشعلوا النيران فيها أيضا، بحيث ظلت النيران تتأجج ليالي عديدة تسطع وهاجة في حلك الظلام، وقد نهب المغول كل التراث الذي امتلكه الخلفاء العباسيون و أهالي بغداد من أثاث وسجاد و أقمشة من حرير وأقطان وكتان، وفساطيط وسروج الخيل وأفرشة وبسط.[٧]

١- الصياد، المغول في التاريخ..(مرجع سابق) ص ١٧٠ و١٧١.
٢- د. بدر، محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية..(مرجع سابق)، ص ١٤٣.
٣- الغامدي، سقوط الدولة العباسية،(مرجع سابق)، ص ٢٤٠.
٤- التكريتي،بغداد مدينة السلام وغزو المغول،(مرجعع سابق)، ص ٢٢٩و ٢٣٠.
٥- بدر،محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية..(مرجع سابق)، ص ١٤١ و١٤٢.
٦- الصياد،المغول في التاريخ..(مرجع سابق) ص ١٧٠.ط
٧- التكريتي،بغداد مدينة السلام وغزو المغول،(مرجع سابق)، ص ٢٥٤ وانظر كذلك ذكر في «بغداد في الشعر العربي من تاريخها وأخبارها الحضارية» جمال الدين الآلوسي، ص ١٣٦.

ولم يكن قتل هولاكو لخليفة المستعصم راجعا إلى كراهة شخصية بل كان للتخلص منه باعتباره عدوا سياسيا كان في بقائه على قيد الحياة خطر كبير يهدد نفوذ هولاكو وسلطانه في بلاد العراق، ولم يكتف هولاكو بذلك بل أمر جنوده بمداهمة المساكن واستباحة المدينة بكاملها وذبح كل من يجدونه واستحياء النساء وسبيهن عذراوات أو عازبات أو متزوجات أو مترملات، محصنات أو غير محصنات، وقام المغول بكل الأفعال التي يندى لها جبين الإنسان والإنسانية خجلا.

ولم يسلم خليفة المسلمين من وحشية المغول، بل كان مصيره من مصير رعيته الأبرياء، فهناك أكثر من رواية وصورة لنهايته، فيروي البعض أنه قتل هو وابنه البكر أبو بكر وخمسة من خصيانه المخلصين الذين لم يتركوه عندما نزلت به المصائب.[١] ويروي البعض أنه أخذ ولف في كيس من جلد، ورفس حتى مات، وبعضهم ذكر أنه مات جوعا، بعد أن أخذ وسجن في قلعة خاصة، وأحيط بأمواله وكنوزه وأقفل عليه داخلها، وبعد أن انقضت الأربعون يوما، والقتلى في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من حبقهم البلد وتغير الهواء، فحصل بسببه الوباء الشديد وانتشر في الهواء، فمات خلق كثير، واجتمع على الناس الوباء والفناء والطعن والطاعون.[٢]

وانحنت في بغداد المنابر، وأخذت أحجارها تتساقط حجرة حجرة، وتصوحت الأشجار، وأخذت أوراقها تتقصف ورقة ورقة، وتيبست النخيل وتلوى سعفها سعفة سعفة، وهبت الريح السموم وسدت نوافذ البيوت، وتصاعد الغبار، فسد عين الشمس، وأظلمت الدنيا، وتقطعت الأنفاس مبهورة واختلطت الدموع بالتراب، وجرت الأنهار بفيض من الدموع والدماء، وطفت الجثث على صفحة مياه الأنهار، وانقطع الأذان في المآذن، وانطلق الصراخ والنحيب، وخفتت الأنوار.[٣]

وبذلك أصبحت بغداد بلدة خالية وأمة جالية، ودمنة حائلة، ومحنة جاثمة، وقصورا خاوية، وعراصا باكية،قد رحل عنها سكانها، وبان عنها قطانها، وتمزقوا في البلاد، ونزلوا بكل واد، وقصورها المشيدة مهدومة، ونعماؤها مسلوبة معدومة، موحشة لفقد قطانها، باكية بلسان الحال على سكانها.[٤] هي تلك النكبة الدامية التي حلت بها من الإعصار المغولي بقيادة خانها السفاح هولاكو.

فقد كان لهذه النكبة شعور عام بالأسى والحزن العميق، والأسف البالغ، لما حل ببغداد وأهلها من التدمير والتشريد والتقتيل مما لم تشهده مدينة من المدن التي اجتاحها ذلك الإعصار الذي لم يبق

١- د. مصطفى طه بدر،محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، مطبعة المكتب الثقافي، الجيزة ١٩٤٧م، ص: ١٤٤و ١٤٦، ونفس النهاية ذكرت في «الحياة السياسية في بغداد في عهد السيطرة المغولية» للدكتور محمد صالح داود القزاز، مطبعة القضاء في النجف ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، ص١٠٦، وكذلك في «بغداد مدينة السلام وغزو المغول» لسلمان التكريتي، مكتبة الشرق الجديد، بغداد ١٩٨٨م، ص: ٢٢٩، وكذلك في «الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد» لعبدالكريم توفيق العبود، وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٦م، ص: ١٧٧ ،وذكر أيضاً أن مقتله كان في ٦٥٦ هـ.
٢- الغامدي، سقوط الدولة العباسية،(مرجع سابق)، ص ٢٤١و ٢٤٢ وذكر - إلى جانب كل الروايات - أنه قتل في اليوم الرابع عشر من صفر عام ٦٥٦ هـ.
٣- التكريتي، بغداد مدينة السلام وغزو المغول،(مرجع سابق)، ص ٢٥٨.
٤- القزاز،الحياة السياسية في بغداد في عهد السيطرة المغولية،(مرجع سابق)، ص ١٠٧.

علائم للحياة، ومازال جرح هذه النكبة ينزف دما في نفوسنا، وسيبقى أثره عميقا ما دامت الأرض والسماوات، لنذكرها جيلا بعد جيل، وقرنا بعد قرن، ومازال شعورنا بهذه النكبة يزداد مرارة وألما، نحس بالأسى والرثاء لأولئك الذين حلت بهم تلك الكارثة التي صيرت بغداد مدينة خربة، عمها البؤس والظلام.[1]

1- الآلوسي، بغداد في الشعر العربي..(مرجع سابق)، ص ١٣٦.

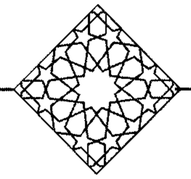

المبحث الثاني

سقوط الأندلس

أ: الإرهاصات

ب: الأحداث الكبرى

ج: السقوط

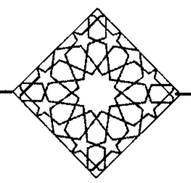

سقوط الأندلس

أ - الإرهاصات:

كانت نكبة الشرق في سقوط بغداد، وليس ببعيد عنها، لا مسافة ولا زمنا، كانت حاضرة أخرى من العالم الإسلامي، ولم تكن بأقل من بغداد جمالا وعلما وأدبا، بل تزيد عنها بطبيعة خلابة، ومناظر بديعة تحسبها جزءا وروضة من جنان السماء وضعها الله في هذه الأرض، إنها الأندلس التي عانت كما عانت بغداد، والتي ضاعت من أيدينا كما ضاعت بغداد، سقطت على أيدي النصارى، بسقوط آخر معاقلها غرناطة. ولعل سقوط الأندلس أعظم كارثة على نفوس المسلمين جميعا فذهابها كان شاملا، حيث تحولت لغتها وثقافتها، وذهبت أرضها، وتغير دينها وقامت فيها حضارة على أنقاض حضارة، ولعل قطرا إسلاميا لم تبك بلدانه، كما بكيت مدن الأندلس.[1]

كان أهل الأندلس يؤلفون أخلاطا متنافرة من السكان بعضهم عرب، وبعضهم بربر وبعضهم صقالبة، وبعضهم مولدون، وبعضهم مستعربون أو يهود.وكانت كل من هذه العناصر البشرية تميل إلى التكتل في بؤر عمرانية خاصة بها، فنرى أن العنصر الغالب على قرطبة من العرب، والعنصر الغالب على اشبيلية وطليطلة من المولدين والعنصر الغالب على غرناطة وقرمونة ومالقة من البربر.[2]

مرت على الأندلس حكومات كثيرة وهي على الترتيب:

(عهد الولاة ٩٢ - ١٣٨ هـ/٧١٠ - ٧٥٥ م):

أهم ما تتسم به فترة الولاة من الناحية السياسية أنها فترة منازعات وحروب، فهي فترة المنافسة على الولاية والمنازعة في السلطة، بين العرب والبربر أولا، ثم العرب أنفسهم قحطانيين وعدنايين ثانيا، وشهدت تلك الفترة من الأندلس كثيرا من الحملات الحربية، وهذا كاف في تصور ما كانت عليه سياسية الأندلس في تلك الفترة من اضطراب وعدم استقرار، فالعهد الإسلامي كان لا

١- عبدالله محمد الزيات، رثاء المدن في الشعر الأندلسي، منشورات جامعة قاريونس١٩٩٠م،ص ١٠٥.

٢- د. السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين و آثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف – لبنان ١٩٦٢م، ص ٣٦٤.

يزال في طور البدء ولم يكن قد أصاب حظا من الاستقرار المطمئن بعد، ولم تكن الحكومات الإسلامية هناك قد وطدت سلطانها على الأقاليم الشمالية، وبعد ذلك كله لم يكن المسلمون أنفسهم على وفاق دائما، ولهذا كانت السمات السياسية لتلك الفترة هي النزاع والصراع والاضطراب والقلق.[1]

بدأ عهد الولاة في الأندلس بطارق بن زياد ثم بموسى بن النصير، وتعاقب الولاة عليها، وفتحت في عهدهم بلاد جديدة كبرشلونة وقشتالة حتى وصلوا قلب فرنسا بالرغم من تلك الفتوحات الكثيرة، والحرب مع النصارى، كانت هناك فتن مع المسلمين أنفسهم، فمع هجرة المسلمين من الشام إلى الأندلس حينما سمعوا بخصبها وجمالها وهجرة العدنانيين من مضر وربيعة وأبناء قريش من فهر وأمية ومخزوم وغيرهم، انتقلت معهم عصبيتهم القبلية ومنازعاتهم الحزبية، بالإضافة إلى أن البربر كانوا يعتدون بأنفسهم، لأن الفاتح منهم،ويرون أنهم أولى من غيرهم بالحكم فحدث أنهم ثاروا على الشاميين والمصريين،وهكذا كثرت الفتن والقتل بين المسلمين وساءت أحوال البلاد، فباتت الأندلس فوضى، يتصرف فيها الجند حسب أهوائهم ثم أصابها قحط عظيم، واشتد عليها الجوع ثلاث سنوات، إلى أن جاء عبد الرحمن الداخل، وأنشأ الدولة الأموية الجديدة.[2]

الدولة الأموية (١٣٨- ٤٢٢ هـ/٧٥٥- ١٠٣٠م):

ما انهار البيت الأموي في الشرق إلا لترتفع له الدعائم في الغرب، فكأن الأقدار أبت إلا أن يظل برواقية حضارة المسلمين، وعز الإسلام في الخافقين، ونجد في هذه الفترة قد تواطأت عدة أسباب لنجاح عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان في أن يصبح سلطان الأندلس، فبعد فراره من أيدي العباسيين من المشرق فر مستخفيا حتى خلص إلى المغرب، فسهل له أخواله البربر دخول الأندلس ومازال الأموي يحتل بلدا بعد بلد حتى دخل قرطبة، ودانت له الأندلس كلها، وتداول بعده أبناؤه وأحفاده حتى وليه عبد الرحمن الثالث، وبه بلغت دولة بني مروان أوج مجدها وكانت تلك نهاية عهد القوة، في خلال تلك الفترة ظهر بنو عامر، واختل الاستقرار في البلاد إلى أن صار الأمر في قرطبة إلى الطبقة الارستقراطية.[3]

ملوك الطوائف (٤٠٣-٥٣٦هـ/١٠١٢-١١٤١ م):

بدأ استقلال ملوك الطوائف في عهد الأمويين بعد أن ضعف سلطانهم، واستبد العامريون بالسلطة دونهم، فكانت الدولة الزيرية استقلت في غرناطة سنة ٤٠٣ هـ وتنتسب إلى زاوي بن زيري، الدولة الحمودية استقلت سنة ٤٠٧ هـ، وهي شيعية تنتسب إلى إدريس. والدولة الهودية وهي من أشهر ممالك الطوائف، استقلت سنة ٤١٠ هـ، وهي دولة عربية أشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه المؤتمن.

١- د. أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٥، ط ٩، ص: ٥٨ وص ٥٩.
٢- محمد بوذينة، أبو البقاء الرندي ورثاء الأندلس، منشورات محمد بوذينة – تونس - الحمامات ١٩٩٥م، ص: ٣٣ و ٣٤.
٣- (المرجع السابق) الصفحات من ٣٤ إلى ٣٧.

والدولة العامرية في بلنسية، واستقلت سنة ٤١٢ هـ، وهم من موالي بني عامر.

والدولة العبادية في اشبيلية، واستقلت سنة ٤١٤ هـ، وهي عربية من بني لخم من ولد النعمان بن منذر ودولة بني الأفطس في بطليوس، واستقلت سنة ٤٢١ هـ، وكانت دولة متحضرة نهضت بالعلوم والفنون، مع أنها بربرية، ولكنها نشأت في الأندلس وتخلقت بأخلاق أهلها والدولة الجهورية في قرطبة، استقلت سنة ٤٢٢ هـ قامت بعد سقوط الدولة الأموية وكان ملوك الطوائف يحارب بعضهم بعضا، ويتغلب قويهم على ضعيفهم، مما جعل بعضهم يستنجد بملوك الإفرنج، فيغتنم هؤلاء الفرصة، ويهاجمون الأندلس، ويستولون على عواصمها.[1]

دولة المرابطين (٤٤٨-٥٤١هـ/١٠٥٦-١١٤٦ م):

ترجع هذه الدولة بأصلها إلى قبيلة لمتونة من برابرة المغرب، وكان من سنتهم أن يضربوا لثاما على وجوههم فلقبوا بالملثمين، ابتدأت دولة المرابطين سنة ٤٤٨هـ بالمغرب، ولم تنعم الأندلس في ذلك العهد بسبب تعصب أميرها الديني وتمسكه بالمذهب المالكي ورفضه أي مذهب آخر، فساد الإرهاب والتعصب، وكثرت الوشايات، وخنقت حرية التفكير، حتى قيام دولة الموحدين بالمغرب.

دولة الموحدين (٥٢٤- ٦٦٧هـ/١١٢٩-١٢٦٨ م):

يرجع نشأة هذه الدولة إلى محمد بن تومرت، وهو من قبيلة بني مصمودة، وهي قبيلة شديدة البأس كثيرة العدد.بدأت عليه دلائل التقوى منذ حداثته، فكان يزور قبور الأولياء ويتبرك بها وطلب العلم في المغرب ولكنه وجد أنه لا غناء فيها، فاتجه إلى المشرق، وزار بغداد، وأخذ عن أبي حامد الغزالي في المدرسة النظامية، ولما رجع إلى المغرب شرع يدعو الناس إلى التمسك بأهداب الشرع، وإقامة أحكام السنة، وكذلك أخذ يبين لهم فساد الملوك والأمراء وظلمهم ويدعوهم إلى عصيانهم وأطلق على طريقته اسم التوحيد، فعرفوا بالموحدين.

دولة بني الأحمر (٦٢٩-٨٩٧ هـ/١٢٣٧-١٤٩١ م):

بنو الأحمر هي قبيلة عربية ينتهي نسبها إلى الخزرج تميز عهد بني الأحمر بالفوضى بسبب الاقتتال على الحكم، حتى إن الابن أصبح يحارب أباه مطالبا بالحكم لنفسه. وتلك الحروب والفتن ساعدت الأسبان على بسط أيديهم في الأندلس.[2]

١- محمد بوذينة، أبو البقاء الرندي ورثاء الأندلس، منشورات محمد بوذينة – تونس - الحمامات ١٩٩٥م، ص ٣٧و٣٨.
٢- (المرجع السابق) الصفحات من ٣٩إلى ٤٣.

ب - الأحداث الكبرى:

سقوط غرناطة:

غرناطة كانت آخر معاقل الأندلس بل وأهمها، فبسقوط غرناطة، سقطت الأندلس ولابد لنا أن نركز على سقوطها أكثر من أي مدينة أندلسية أخرى.من الدول التي تتابعت في الأندلس، دولة الموحدين ٥٢٤-٦٦٧ هـ/١١٢٩-١٢٦٨ م.[١] وذلك أن نهاية العصر الموحدي قد أفضى إلى سقوط القواعد الأندلسية الكبرى، حين ضعفت المقاومة أمام القوى النصرانية المتحدة، رغم مقدرتهم على حماية الأندلس ولذلك تلا ضعف السلطة الموحدية في الأندلس ضياع العديد من قواعده، زيادة على عدم توفر القوة الكافية لمواجهة أسبانيا النصرانية المتنامية.[٢]

فبعد دولة الموحدين ظهرت دولة بني الأحمر – التي سبق ذكرها – وهي الدولة التي بظهورها برزت غرناطة وكان عميد قبيلة بني الأحمر محمد بن يوسف بن نصر.[٣]

فاتفق هذا مع الأسبان أن يمده بجيش لقتال ابن هود[٤]، وذلك على أن ينزل لهم عن بسائط الأندلس إن استتب أمره فيها، فاغتنم الإفرنج الفرصة وزحفوا بجموعهم يستولون على المدائن والحصون حتى بلغوا قرطبة فحاصروها ستة أشهر، ثم سقطت في أيديهم سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥ م بعد أن لبثت نحو عشرين سنة وخمس مائة عاصمة أسبانيا المسلمة.

ثم قتل ابن هود ولم يبق للمسلمين سوى إقطاعة الأندلس وعاصمتها غرناطة، يتولاها بنو الأحمر من قبل فرديناند الثالث، وعاشت هذه الدولة الصغيرة ما ينيف على خمسين سنة ومائتين، والسبب أن الملوك الأسبان كانوا يشغلون عنها بمحاربة بعضهم البعض، وأنها كانت تستنجد سلاطين المغرب في ضنكها فيجيزون إليها جيوشها لدفع المسيحيين عن أراضيها.[٥]

وهكذا نرى أنه خلال الفترة التي ظهرت فيها مملكة غرناطة، سقطت العديد من القواعد الأندلسية، سقطت قرطبة عاصمة الخلافة سنة ٦٣٣هـ، وبلنسية سنة ٦٣٦ هـ وإشبيلية سنة ٦٤٦ هـ، ثم تلتها حصون ومدن أخرى، أما المدن التي بقيت للمسلمين فقد احتوتها مملكة غرناطة.[٦]

١- محمد بوذينة، أبو البقاء الرندي ورثاء الأندلس، منشورات محمد بوذينة – تونس - الحمامات ١٩٩٥م، ص ٤١.

٢- د. عبدالرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢ – ٨٩٧ هـ/٧١١- ١٤٩٢ م، دار القلم ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص ٥١١ و ٥١٣.

٣- هو أبو عبدالله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الحزرجي، يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.من «التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة» للدكتور عبد الرحمن علي الحجي، ص ٥١٦و٥١٧.

٤- بوذينة، أبو البقاء الرندي ورثاء الأندلس،(مرجع سابق)، وهو الذي بسط صاحب بطليوس، بعد أن زايل الموحدون الأندلس بعد انقطاع دولتهم، فشمل سلطانه بطليوس ومرسية وقرطبة وإشبيلية. ولكنه كان أضعف من يذود الأعداء عن مملكته ويحرس استقلالها، ويرد المكايد عنها.

٥- المرجع السابق، ص ٤٢.

٦- د. الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢(مرجع سابق) ص ٥١٧و٥١٨

وقد صارت غرناطة بعد سقوط الأمصار الكبرى عاصمة الدولة وحاضرتها واتسعت مساحتها وكثر سكانها وازدهرت بالأعمال والصنائع، وبرزت بين مدن الأندلس الباقية، ولقيت عناية أمراء بني الأحمر واحدا بعد واحد،وخلدت آثارا لا تزال إلى اليوم شاهدة بحضارة عريقة،وازدهرت في دولة غرناطة حضارة رفيعة تناولت الجوانب المتعددة في العلوم والآداب والصنائع والعمران، بالإضافة إلى استمرار التقاليد الزراعية والتجارية على نشاطها ونموها.[١] وهكذا استقر المسلمون في غرناطة بعد ضياع قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية وغيرها، وذلك بعد سلسلة من الحروب على مدى سنوات تعاقب فيها ملوك الأسبان، وكذلك ملوك المسلمين، وبعد سنوات من الفتن الداخلية سواء المسلمين والأسبان، وضاق الملك بعد اتساعه، وصار تنين العدو يلتقم كل وقت بلدا أو حصنا.[٢]

«وهكذا كانت شمس الأندلس تؤذن بالغروب، وكانت تغرب في الواقع بخطى وئيدة ولكن مؤكدة. ولم يك شك في أن هذه المملكة الإسلامية الصغيرة، التي يسودها الخلاف والتفرق، وتعصف بوحدتها ومنعتها الحروب الداخلية، كانت تنتحر ببطء وأن هذه الأمة الأندلسية، التي أخذت تتكمش في مدنها وثغورها القليلة، كانت تنظر إلى المستقبل بعين التوجس والجزع، وأن هذه الحياة الباهرة الساطعة التي كانت تحياها بين آن وآخر، كلما تربع على العرش أمير قوي رفيع الخلال، لم تكن إلا سويعات النعماء الأخيرة، في حياة أمة عظيمة تالدة».[٣]

وبالرغم من وقوع المدن والحصون الإسلامية في أيدي النصارى، إلا أن روح المقاومة والثورة كانت مشتدة في بعض القرى، وهنا أيقن الملك النصراني - ملك قشتالة – أنه لابد لاستتاب الأمور في المناطق الإسلامية المفتوحة من الاستيلاء على غرناطة، التي مازالت تثير بمثلها وصلابتها روح الثورة في تلك الأوطان المغلوبة على أمرها، فقضى شتاء عام (١٤٩٠) م في الاستعداد والأهبة وفي أوائل (١٤٩١) م، خرج في قواته معتزما أن يقاتل الحاضرة الإسلامية حتى ترغم على التسليم، وزود جيشه بالمدافع الضخمة، والذخائر والأقوات الوفيرة، وبدأ هذا الجيش، بأمر فرديناند بإتلاف الزرع وتخريب القرى والأرياف، وتدمير القلاع والحصون المحيطة بغرناطة، ومن حجارة تلك الحصون والأبراج والقلاع بنى الملكان الكاثوليكيان: فرديناند وإليزابيث مدينة تقي جيشهما برد الشتاء، بعد أن تيقنا من أن حصار غرناطة ليس كحصار غيرها من المدن الأخرى فهو سيطول.[٤]

١- د. محمد رضوان الداية، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، مكتبة سعد الدين - بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، الصفحات ٢٦و ٢٧و ٢٨.

٢- الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دارالكتاب العربي، بيروت ١٩٨٥م، ج ٦، ص ٣٠٤.

٣- انظر، محمد عبدالله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين،مكتبة الخانجي – القاهرة١٣٧٨مهـ ١٩٨٥م، ط ٤، ص: ١٨٨و ١٨٩و ٢٣٥ و ٢٣٦. (بتصرف) وكان خروجه لإقامة معسكره أمام غرناطة في ١٢ من جمادى الثانية سنة ٨٩٦ هـ، كما ذكره المقري في نفح الطيب،ج ٦ ص ٣٢٢، وكذلك د جمعة شيخة في «الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي من سقوط الخلافة ق ٥هـ -١١ م إلى سقوط غرناطة ق ٩هـ -١٥ م»، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والاشهار، تونس ١٩٩٧، ص ٣٤٦.

٤- د. جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي من سقوط الخلافة ق ٥هـ -١١م إلى سقوط غرناطة ق ٩هـ -١٥م، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، تونس ١٩٩٧م، ج ٢، ص ٣٤٦.

و كانت تلك حاضرة تمد غرناطة بالمؤن، وبذلك حولوها من مرج أخضر إلى بسيط من الفقر الموحش، وقطعوا بذلك عن غرناطة موردا من أهم مواردها.[1] وكانت غرناطة، والعدو يدك أرابضها دكاً، كأم ثكلى يعبثُ الجيشُ النصراني بفلذاتِ كبدها على مرأى ومسمع منها، ولا تستطيعُ أن تحركَ ساكناً.[2] وعندما اقترب هذا الجيش العرمرم شعر سكان غرناطة بالاضطراب وأصابهم الفزع، لأنهم يعرفون أنهم مقبلون على عراك ميئوس من نتيجته.[3]

ج - السقوط:

استغلت دول النصارى الإسبانية فترتين قلقتين في حياة الأندلس السياسية والعسكرية الأولى في فترة الشغور الأندلسي من السلطة الواحدة القوية في القرن الخامس، حيث استطاع ألفونسو السادس أن يستغلب مدينة طليطلة المنيعة في وسط الأندلس مؤذنا بخرم الخريطة الأندلسية ومنذرا بالتهام بلاد أخرى لا تقل عنها منعة وتحصينا. والفترة الثانية كانت بعد هزيمة العقاب (٦٠٩) وانشغال الموحدين بخلافاتهم على السلطة، وبنشاط أشياعهم من بني مرين الذين بدءوا ينقضون سلطانهم لإقامة دولة جديدة على أنقاضهم، واتفق هذا – في المدة والوقت – مع استعار الحرب الصليبية التي غزت المشرق، وكان للأندلس أيضا منها نصيب وهكذا ؛ وبعد انهيار الأندلس الكبرى، سقط معظم المدن الأندلسية العريقة، والحصون الحصينة، والمراكز الحضارية العظيمة ؛ واستدرك بنو الحمر في دولة غرناطة ما أمكن أن يستدركوه وهم بين تماسك شجاع ومداراة مغلوب، فقد كان موقفهم حرجا بقيادة ابن الأحمر؛ حيث كان يضطرم بحماسة وطنية ودينية غير أنه لم يستطع أن يقف في مواجهة تيار الهجمات القشتالية - الأرغونية – دون التضحيات الجسام، ففي سنة ٦٤٣ هادن ابن الأحمر فرناندو الثالث ملك قشتالة واضطر لأن يترك له عددا من المدن والحصون كأرجونة وجيان، ومن جراء الهدنة معه كانت اشبيلية فريسة سهلة وسقطت سنة ٦٤٦ – وتتالت الأحداث بعد ذلك على غرناطة بين مسالمة بني الحمر لقشتالة وتحالفهم معها وبين المدافعة ومحاولة استرداد بعض المفقود من أرض الوطن.[4]

وتوالت الأحداث على المدن الأندلسية – واستكمالا لما وردناه في الأحداث الكبرى لابد من استكمال الصورة النهائية لسقوط الأندلس على أيدي الأسبان لأن الأحداث مترابطة، وكل حدث متأثر بما قبله مؤثر لما بعده – إلى أن وصل إلى حصار غرناطة.

١- عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، (مرجع سابق)، ص٢٣٦
٢- د. شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي..(مرجع سابق)، ص ٣٤٦.
٣- واشنطون ايرفنج، سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر ١٩٨٨م، ص٤٣٤.
٤- د. محمد رضوان الداية، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس (مرجع سابق) الصفحات ١٢–٢٠ ونذكر أن مناسبة قصيدة الرندي (النونية) هو تنازل ابن الأحمر لعدد من المدن لملك قشتالة. انظر كذلك قراءات في الشعر الأندلسي للأستاذ الدكتور صلاح جرار، دار المسيرة، ط٢، ص: ١١٧.

و شعر فرديناند أن محاولة إخضاع غرناطة بالقوة وحدها ستكون خطيرة وستجري الدماء فيها غزيرة، وجريا على عادته استخدام أسلوب الحيل أكثر من القوة، فقد صمم أن يخضع غرناطة بالتجويع.[1] واشتد الحصار بالمسلمين، غير أن النصارى على بعد، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبل شلير، إلى أن تمكن فصل الشتاء، وكلب البرد ونزل الثلج، فانسد باب المرافق، وانقطع الجالب، وقل الطعام، واشتد الغلاء وعظم البلاء، واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد، ومنع المسلمين من الحرث والسبب، وضاق الحال وبان الاختلال، وعظم الخطب، وذلك أول عام سبعة وتسعين وثمانمائة، وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع الغلاء دون الحرب، ففر ناس كثيرون من الجوع إلى البشرات، ثم اشتد الأمر في شهر صفر من السنة، وقل الطعام وتفاقم الخطب.[2] وهكذا بدا الفصل الأخير في الصراع بين النصرانية والإسلام في إسبانيا ؛ ولم يك ثمة شك في نتيجة هذا الصراع، الذي أعدت له إسبانيا النصرانية عدتها الحاسمة، ومهدت له جميع الوسائل والسبل، بلد إسلامي وحيد هو البقية الباقية من دولة عظيمة خالدة، يحيط بها العدو كالموج الزاخر من كل ناحية، مزودا بالعدد والمؤن الموفورة، وقد قطعت كل موارده وصلاته من الخارج، كان هذا موقف غرناطة آخر الحواضر الإسلامية بالأندلس في صيف١٤٩١م.[3]

وهكذا اختتمت المأساة الأندلسية، واستولى القشتاليون على غرناطة آخر الحواضر الإسلامية في اسبانيا، وخفق علم النصرانية ظافرا فوق صرح الإسلام المغلوب وانتهت بذلك دولة الإسلام بالأندلس، وطويت إلى الأبد تلك الصفحة المجيدة المؤثرة من تاريخ الإسلام، وقضى على الحضارة الأندلسية الباهرة، وآدابها وعلومها وفنونها، وكل ذلك التراث الشامخ، بالفناء والمحو، وشهد المسلمون احتلال العدو الظافر لحاضرتهم ودار ملكهم، وموطن آبائهم وأجدادهم، وقلوبهم تتفطر حزنا وأسى على أن هذه المناظر المحزنة، كانت تحجب مأساة أليمة أخرى؛ تلك هي مأساة الملك التعس أبي عبد الله آخر ملوك بني الأحمر وآخر ملوك الإسلام بالأندلس.[4]

١- واشنطون ايرفنج، سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس،(مرجع سابق)، ص ٤٣٩.
٢- التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، (مرجع سابق) ص ٣٢٢و٣٢٣.
٣- عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (مرجع سابق) ص: ٢٣٦.
٤- عنان، نهاية الأندلس..(مرجع سابق)، ص. ٢٦٤.

الفصل الثاني

رثاء المدن والممالك: الموضوعات الفاعلة

المبحث الأول: الدين

الدين الفاتح

الدين المؤسس

الدين الغريب

المبحث الثاني: المواطنة

المواطنة الهوية

المواطنة الضائعة

المواطنة المهزومة

المبحث الثالث: الغربة

غربة الزمان

غربة المكان

غربة الإنسان

المبحث الأول

الدين

أ: الدين الفاتح

ب: الدين المؤسس

ج: الدين الغريب

الدين:

تمهيد:

ليس الدين عند الشاعرين – مجرد عقيدة وطاعة ومعاملات، يرجو بها المؤمن التقرب إلى ربه، والاستعانة على مواجهة صعاب الحياة، استعداداً للقائه بقلب سليم؛ بل الدين، كما يفتح القلوب للإيمان، ويشرح النفوس للتقوى، وينور العقول، يفتح – أيضاً – أبواب البلدان المنغلقة، وينشر فيها العدل والسلام، ويؤسس الحضارة الإنسانية ؛ ويضمن استقرارها وازدهارها بتشريعاته الخالدة، لأنه دستور السماء الذي أنشأ المخلوقات وقدر لها أرزاقها، وسن لها منهجها وحدد مسارها.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾[1]، وهو دين لسعادة الناس كافة: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾[2]، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[3].

ولم يرسم هذا الدين للمسلمين معالم عقيدتهم وفروضها العملية فحسب، بل رسم لهم أيضا طريق الفضيلة وما ينبغي أن يتحلوا به في سلوكهم وأخلاقهم، فهو سلوك خلقي قويم.[4]

ولهذا كانت الفتوح الإسلامية، وكان الجهاد لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الظلم إلى العدل، ومن العنصرية إلى المساواة، فالتاريخ الإسلامي يشهد على ذلك، ووصول الدين الإسلامي إلى الصين شرقا، وإلى أسبانيا غربا إنما هو أكبر دليل على دخوله في تلك البقاع رغبة من أهلها، ومقارنة لما كانوا فيه من جهل إلى ما وجدوه في الإسلام من رقي ورفعة ونور.[5] نظر أصحاب الأفكار البريئة السليمة في أحكام الإسلام، فاعتنقوه،وتأملوا في حكمه الجليلة فأحبوه وملكت قلوبهم مبادئه الحكيمة فعظموه، وكلما كان المرء سليم العقل، نير البصيرة، مستقيم الفكر، اشتد تعلقه به، لما فيه

١- سورة المائدة، الآية (٣)
٢- سورة إبراهيم، الآية (١)
٣- سورة آل عمران، الآية (٨٥)
٤- د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي - العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥م، ط ٢٣، ص ١١ و ١٤ و ١٥.
٥- الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،دارالكتاب العربي، بيروت ١٩٨٥م، ج ١، ص: ٢١٩.

من جميل المحاسن وجليل الفضائل، إن الدين الإسلامي جمع الله به فرقة العرب وشتاتهم، ووحد به قلوبهم وصفوفهم، وهذب طباعهم وأخلاقهم، حتى أوجد منهم أمة شديدة البأس، واسعة السلطان، ملكت ناصية الأرض، ونشرت علم الإسلام في نواحيها، قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾[1].دين نشره الله في أرجاء المعمورة، كالشمس الضاحية، لا يحجب شعاعها، وكالقمر الزاهر، لا يخفى ضوئه، ولا يخسف نوره دين يحتوي على خيري الدنيا والآخرة، ونعيم العاجلة والآجلة، فما من فضيلة إلا حث عليها، وما من رذيلة إلا نفر منها.[2]

فإذا زاغت القلوب ومالت النفوس عن النهج القويم، وتخلت العقول عن خالقها، عاد ذلك الدين غريبا، واستبدل الإنسان معاول الهدم ومسالك الفتنة بسواعد الفتح والتأسيس، وتلك سنة الله في خلقه، وتلك سيرة الأمم في كل زمان ومكان.

أ - الدين الفاتح:

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[3]

وقال تعالى: ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[5].

الآيات السابقة آيات تشير إلى الجهاد في سبيل الله ؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وهو من فرائض الإسلام يقع منه في ذروة السنام، وبه كان للإسلام عزة ومهابة ؛ صانت شرعته، وذبت عن بيضته، ورسخت قواعده، وحرست ثغوره ؛ فتمكنت أحكامه، وسادت تعاليمه وآدابه، وظهر عزه وسلطانه على سائر الأديان.[6]

إذا كان فتح الثغور الحصينة والبلدان النائية عند قوم يعني بسط الهيمنة والاستعباد ؛ وزيادة الكسب والاستغلال، وكان كل ذلك مثار فخرهم وزهوهم، فإن الفتح عند المسلمين قضاء على ظلمات

١- سورة آل عمران الآية، (١٠٣)
٢- عبدالعزيز المحمد السلمان، من محاسن الدين الإسلامي،.ط ١٣، الصفحات ٣و ٤ و ٨٢ و٨٣.
٣- سورة الأنفال، الآية (١٥)، (١٦)
٤- سورة النساء، الآية (٨٤)
٥- سورة التوبة، الآية (١١١)
٦- د. ناصر بن عبدالرحمن بن ناصر الخنين، النظم القرآني في آيات الجهاد، مطبعة الثغر ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص: ١

الجهل والفقر والأمراض النفسية، ونشر للعدل والتحرر والسلام، وفتح لأبواب التطور والازدهار تلك هي الأهداف الإسلامية السامية من الفتح.

وذلك هو السر من وراء ركوب الخيل وحمل السيوف وقطع المسافات في اليابسة وفي البحار، وذلك هو مصدر العز وسر السلطان عند المسلمين.

وثبت تاريخيا وبشهادة المؤرخين الغربيين أن المسلمين الأولين انتشروا في الأرض يبلغون الأمم الإسلام، ويقتبسون ما صادفوه من العلوم التي لديها و يتدارسونها، ودفعهم حب التعلم إلى البحث عن نصوصها في مصادرها المكتوبة، فلم يحرقوا ما صادفوه في البلاد التي افتتحوها من الكتب العلمية كما كان يفعل غيرهم من الفاتحين.

ولا بد في هذا المقام من الاستشهاد بأقوال مؤرخين وكتاب لا يمتون إلى الإسلام بصلة، وإنما هم علماء يعطون الحوادث حقها من العناية، ويضعون الأمور في نصابها.

يقول سير. ت. و. أرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام: واعتنق هذا الجديد كثير من أشراف المسيحيين عن عقيدة راسخة، ونستطيع أن ندرك كيف أن عوامل التأثير في الآراء وإقامة الشعائر الإسلامية بالإضافة إلى الجهود الواضحة التي بذلت في سبيل تحول هؤلاء المسيحيين، كما أنها سرعان ما عملت على زيادة الداخلين في الإسلام.

ومع الفتوح العظيمة للإسلام في البلاد من مشرقها إلى مغربها، كان التقيد بمبادئ الدين الإسلامي مبدأ سار عليه المسلمون في علاقتهم مع أهل الأديان الأخرى، فكانوا يبيحون لأهل البلد الذي يفتحونه أن يبقوا على دينهم مع أداء الجزية، وكانوا في مقابل ذلك يحمونهم ضد أي اعتداء، ولا يمسون عقائدهم وشعائرهم ومعابدهم.[1]

ويقول الدكتور جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب: «إن القوة لم تكن عاملا في انتشارِ القرآن ما ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغةً لهم فذلك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يَروا مثله من سادتهم السابقين، ولِما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل، ويقول في موضع آخر: وما جهله المؤرخون من حِلم العرب الفاتحين وتسامحهم، كان من الأسباب السريعة في اتساع فتوحهم وفي سهولة اعتناق كثيرٍ من الأمم لدينهم ونُظُمهم ولغتهم التي رسخت وقاومت جميع الغارات وبقيت قائمة حتى بعد توارى سلطان العرب عن مسرح العالم».[2]

١- سير توماس و. أرنولد، الدعوة إلى الإسلام بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، مكتبة النهضة الجديدة ١٩٧٠، ص ١٠٠ و ١٦٣
٢- انظر، د. غوستاف لوبون، حضارة العرب، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ص: ٨ و٩.

وجاء في كتاب (العالم الإسلامي الجديد): ولم يبتغ العرب من فتوحهم إحراز المغانم ودرس المعالم، بل كانوا ضد ذلك أبناء أمة كريمة تحب العلم والتعلم، وتجل ميراث الحضارات السابقة، وقد تشابكت بين الغالبين والمغلوبين أرحام المصاهرة وعقدت قلوبهما على الأخوة الدينية، فلم يلبث الفريقان أن امتزج بعضهما ببعض ليخرجا للناس حضارة جديدة، هي حضارة الإسلام التي أحيت آثار اليونان والفرس والروم وطبعتها بطابع العزيمة العربية والعبقرية الإسلامية.[1]

قال أبو البقاء الرندي مذكرا بهذه المعاني المتصلة بالدين الفاتح:

يـا راكـبـين عـتـاقَ الخـيـل ضـامـرة كـأنـهـا في مجـال الـسـبـق عـقـبـان

وحـامـلـين سـيـوفَ الـهـنـد مـرهـفـةً كـأنـهـا في ظـلامِ الـنـقـعِ نـيـران

وراتـعـين وراء الـبـحـر في دَعَـة لـهـم بـأوطـانـهـم عـز وسـلـطـان[2]

يشيد الشاعر بالدين الفاتح،مفتخرا بالفتوح الإسلامية، مبرزا فضل الخيول والسيوف، تلك الخيول التي لا يوازيها جمالا و قوة في ساحة القتال شيء، والسيوف التي تفتح الأوطان سيوف مهندة تشع في ساحة المعركة.

وهكذا نجد أبرز تعبير عن فنون القتال، ولكن في الظاهر إنما هو يستنجد بالفرسان وبالذين فتحوا بقاع الأرض، بأن الأندلس هي أحوج لكم من أي مكان آخر، فينادي ويأتي بالتعبير الصادق الأصيل، معبراً عن كوامن النفس وما تحمله من مشاعر مختلطة ملؤها الحزن والحسرة والألم، والاشتياق لذلك الدين الفاتح.

وكذلك الشيرازي في قوله:

وصـانَ بـلادَ المـسـلـمـينَ صـيـانـةً بـدولـة سـلـطـانِ الـبـلادِ أبـي بكـرِ

مـلـيـكٌ غَـدا في كـل بـلـدةٍ اسـمـهُ عـزيـزاً ومحـبـوباً كـيـوسـفَ في مـصـرِ

لـقـد سَـعِـدَ الـدنـيـا بـه دامَ سـعـدُهُ وأيَـدَهُ المَـولى بـألـويـة الـنـصـرِ[3]

يتحدث عن البقاع التي كانت آمنة، ويذكرها بعد بكائه بغداد وألمه لما حل بها وإنما يذكر ويمدح أبا بكر بن زنكي حاكم إقليم فارس، وما كان الوضع في زمانه حيث إن الدين عندما فتح تلك البقاع،

١- عفيف عبدالفتاح طيارة، روح الدين الاسلامي (مرجع سابق).ص: ٤١١ و ٤١٣.
٢- التلمساني، نفح الطيب (مرجع سابق)، ج٦، الصفحات ٢٧٩و٢٨٠و٢٨١.
٣- د. جعفر مؤيد شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت ١٩٨٠م،الصفحات من ٣١ إلى ٤١.

فتح معه قلوبا احتوت الدين وتشبثت به لما كان فيه من عدل وأمان وهذا المدح الذي جاء به الشيرازي في هذا المقام إنما أراد به تأكيد نسيان ما مضى والسلو عنه بما هو آت راجيا المولى أن يعفو عما سلف ويمن بالصبر الجميل ويحفظ الأمة بمليكه الذي غدا اسمه عزيزا ومحبوبا كيوسف في مصر مليكه (سعد) الذي سعدت به الدنيا،لما امتاز به من الخصال.[1]

ب- الدين المؤسس:

رسمت الشريعة الإسلامية للناس المنهج القويم الذي يكفل لها سبقا عظيما في قيام مجتمع إنساني متحضر، فأنزل الله الشرائع والأحكام التي بتطبيقها يصلون إلى أعلى المراتب، وترك لهم مجالا واسعا للاستزادة من النظم الحضارية ومتابعة تطويرها بحسب ما تقتضي به مصالح معاشهم ورفاهيتهم.

و الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة التي تشتمل أسسها الفكرية والنفسية على حاجات الحياة كلها، من مختلف جوانبها الفكرية والنفسية والجسدية والمادية الفردية والاجتماعية، وجميع المجالات العلمية والعملية لذلك فهي جديرة بأن تمنح الأمم التي تلتزم بها وتسير في منهجها سيرا قويما الصورة المثلى للحضارة الإنسانية الراقية، فأسس هذه الحضارة ومناهجها هي التي دفعت الأمة الإسلامية في حقبة من الدهر للارتقاء في سلم الحضارة ارتقاء مدهشا.وظل ارتقاء قمم الحضارة المثلى أبد الدهر رهنا بالتزام أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها ومنهجها.[2]

وهكذا متى دخل الإسلام في بقعة من بقاع الأرض، إلا وأرسى فيها أسسها وازدهرت حضارتها، وذابت فيها الحضارات الأخرى لما فيها من قيم ومبادئ توافق الفطرة الإنسانية السليمة، وتحت ظل هذه الحضارة ازدهرت بلدان فتحها المسلمون وانتشر العلم والعلماء، وذاع صيتها في كل أرجاء المعمورة فقد كان العلم هو الوسيلة الأولى لبناء الحضارة الإسلامية بناء واقعيا في كل مجال من مجالاتها ؛ ولهذا كان الازدهار الكبير للبلاد تحت حكم الإسلام إنما هو من تعاليم الإسلام وحثه على العلم والعمل.

و كانت الأمة الإسلامية من بغداد إلى الأندلس أمة يشرق نورها بازدهارها في الأدب والعلوم، وكانت في ظل حكم العباسيين من أكبر الحضارات قاطبة إن لم تكن أكبرها عامة، فقد كانت حاضرة لعالم مترامي الأطراف يحج إليها القاصي والداني. وكانت دار علوم كما كانت دار سياسة.[3]

١- د. أمل إبراهيم محمد، الأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي،الدار الثقافية للنشر، القاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، ط ٢، ص: ٩٢و٩٣.
٢- عبدالرحمن جنكه الميداني، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، دار القلم – دمشق ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م، ط ٢، ص:١٤و١٥و ٢٣و٢٤.
٣- د. محمد موسى هنداوي، سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية عصره حياته ديوانه البوستان، مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية، القاهرة ١٩٥١م، ص: ٥٣.

لقد جاءت قصيدتا الرندي والشيرازي رثاء لبلدين ضاعا في غفلة من المسلمين مع الإشارة إلى قوة الحضارة وما كان في القطرين من صروح للعلم، وكنوز ضاعت بضياعها وسقوطها.

يقول الرندي متأسفا على حال المدن الأندلسية وما كانت عليه من عز وسؤدد:

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم، فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان[1]

يذكر الرندي هنا أسماء لأهم المدن الأندلسية التي ذاع صيتها بعد أن أسست تحت مظلة الإسلام، حيث إن الأندلس في عصر الأمويين كانت من أخصب الفترات الفنية وأينعها ازدهارا في هذا المجال والشاعر لا يذكر محاسن مدن ومفاتنها بعد سقوطها إلا وهو في قمة الحسرة والتفجع عليها، وربما يحاول الرندي هنا في ذكره للمدن العظيمة التي سقطت أن يستنهض الأمة الإسلامية لمؤازرة البلد المنكوب.

إن المدح المرتبط بالجهاد والحرب إنما هو لغرس كل القيم الفاضلة والمثل السامية في نفس الإنسان المجاهد، وبث روح العزة الشريفة، والجرأة والمغامرة والتضحية في سبيل تلك القيم وتلك المدن وذكر المدن السابقة ومدحها بما كان فيها من مفاتن ومحاسن قد يبث أملاً في الحياة من جديد، وطمعا في النصر، وما إلى ذلك من روح التفاؤل والاستعانة بالصبر ومواجهة المواقف بشجاعة وعزيمة لا تعرف اليأس أو القنوط.[2]

ويقول الشيرازي في معرض المديح، مذكرا بسياسة العدل والرقي التي أخذ بها الممدوح:

كذلكَ تَنشأ لينَة هوعِرقُها ... وحُسنُ نباتِ الأرضِ من كَرمِ البَذرِ

ولو كان كِسرى في زَمانِ حَياتِه ... لقال إلهي اشدُدْ بدولتِه أَزْرِي

بِشُكرِ الرعايا صين من كل فتنة ... وذلكَ أن اللب يُحفَظ بِالقَشْرِ

يُبالغُ في الإنفاق والعدلِ والتُقى ... مبالغَة السعدِي في نُكَتِ الشعرِ

1- المقري التلمساني، نفح الطيب (مرجع سابق) ج: ٦، الصفحات ٢٧٩و٢٨٠و٢٨١.

2- موسى رزق ريحان، شعر الجهاد والحرب في الأندلس من الفتح حتى نهاية دولة المرابطين، أطروحة دكتوراه، إشراف د. محمد علي مكي، جامعة الكويت، ١٣٩٥هـ ١٩٧٥ م.

.....

وَلَوْ سَبَقَتْنِي سَادَةٌ جَل قَدرُهُم ... وما حَسُنَت مني مُجَاوَزَة القَدر[1]

يؤكد الشيرازي هنا ما كان من عزة الإسلام المؤسسة لدولة قوية كان يحكمها حكام كسبوا حب شعبهم وثقتهم، ولهذا نرى الشيرازي يستفيض في مدحهم وهو في نفس الوقت حزين متأسف على ما آلت إليه حاضرة الخلافة، فقد كان حاكمها مثالا للعدل والتقى والإنفاق على الرعية، وإن مدح الحاكم من المحكوم إنما يدل على الرخاء والراحة التي كان ينعم بها الشعب في ظل القيادة الرشيدة.

ج- الدين الغريب:

جاء في لسان العرب، الغريب: البعيد عن وطنه، التغرب هو البعد.[2]

يقول حازم القرطاجني: وأحسن الأشياء التي تعرف، ويتأثر لها، أو يتأثر لها إذا عرفت، هي الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاذها، أو التألم منها، أو ما وجد فيه الحالان من اللذة والألم، كالذكريات للعهود الحميدة المنصرمة التي توجد النفوس تلتذ بتخيلها وذكرها وتتألم من تقضيها وانصرامها.[3]

فلما سقطت دولة المسلمين في شرق البلاد وغربها، كان الإحساس بالقهر والألم هو السمة المشتركة بين أبناء متباعدين جغرافيا ولكن قربهم وجمعتهم المحنة والغربة بعد أن سخرت لهم كل البقاع بتسامحهم ورقي دينهم الذي عانقوه، إذا بهم أصبحوا من المستضعفين في الأرض، وإذا بدينهم أصبح غريبا في وطنهم، حيث حل محله دين المحتل، وكنائسه وضاع التراث العربي أغلبه غرقا في نهر الكره والظلم وضاعت معه حضارة كانت من الحضارات التي ذابت تحت مظلتها كل الحضارات الشرقية والغربية، وأصبح غريبا في عقر داره.

يقول أبو البقاء الرندي في هذا السياق:

ولِلحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان

أصابها العين في الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان

.....

1- د. الشيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، (مرجع سابق) م، ص ٣٩.

2- ابن منظور، لسان العرب، مادة (غ ر ب).

3- فاطمه طحطح،الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء ١٩٩٣ م، ص ١٥.

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان[1]

يوضح الرندي شدة ما حل بالأندلس، وما أصاب الحضارة الإسلامية فيها، ولعل قطرا إسلاميا لم تبك بلدانه ومدنه كما بكت مدن الأندلس وبلدانها، فقد أخذت تتساقط كما تتساقط أوراق الخريف، وكانت كل مدينة تسقط لا تعود أبدا، وكلما ضاعت مدينة أو بلدة ذرفوا الدموع حارة سخينة ويؤكد أن ما حل بها إنما أثر في كل البقاع التي تدين بالدين الإسلامي، فإذا تداعى قطر من ركن من أركانها تداعى له سائر الأقطار بالسهر والحمى، فأصبحت تبكيها كل المحاجر، وتندبها كل الحناجر.

وقال الشيرازي مؤكداً ما آل إليه الدين من غربة:

لقد ثكلت أم القرى ولكعبة مدامع في الميزاب تسكب في الحجر

.....

وفي الخبر المروي: دين محمد يعود غريبا مثل مبتدأ الأمر

أأغرب من هذا ؟ يعود كما بدا وتسبى ديار السلم في بلد الكفر ؟[2]

وهكذا يبدي الشاعر أسفه وحزنه الشديد على انهيار الحضارة الإسلامية وعلى زوال آثارها التي هي مظهر الإسلام وممثل الشرف والعزة للمسلمين ما هي أم القرى وما هي الكعبة ومن العلماء الذين يرثي شاعرنا لهم أرق رثاء ويعبر عن حرقة فؤاده في الكارثة التي نزلت بالمدن الإسلامية و بآثارها.[3]

١- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٨٠

٢- د. الشيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، (مرجع سابق)، ص٣١و ٣٤

٣- المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، سعدي الشيرازي أديب الفارسية وشاعرها الكبير من خلال مؤتمره في دمشق ٢٢-٢٥ نيسان ١٩٨٥م، مكتبة د. فتحي الدريني، ص ١٠٠و١٠١.

المبحث الثاني

المواطنة

أ: المواطنة الهوية

ب: المواطنة الضائعة

ج: المواطنة المهزومة

المواطنة:

في قصيدة الرثاء للممالك والمدن تظهر المواطنة بأكثر من شكل، فالإنسان المنتمي لوطنٍ ما لا بد وأن يكون لديه الولاء للأرض التي يحيا عليها، وهذا الولاء قد يختلف من شخص لآخر باختلاف الظروف التي مرت به أو بالأرض التي ينتسب إليها والتاريخ البشري والحضاري أكبر دليل على ذلك ؛ وبطبيعة الحال اختلف التعبير على مر العصور عن هذه المواطنة، هذا الاختلاف أمر طبيعي ؛ بحيث لا يمكن للنفس البشرية أن تتفق في طرق التعبير، وهذا ما نراه في خضم ما مر به القطران الإسلاميان، بغداد والأندلس، وكيف أن المواطنة لعبت دورا في أحداثهما، وتاريخ سقوطهما، وذلك ما أكدته أبيات شعراء عاصروا ذلك السقوط، فنرى الموضوعات في الشعر تعبر عن وقائع وأحداث، وتبين إحساس النفس بتلك الأحداث والحقائق المجردة، ومضمون الوقائع.

جاءت القصيدة تعبيراً واضحا عن مواطنة لم ترض بما حل بالديار الإسلامية، وجاء الرثاء موضوعا عاما للقصيدة مبينا بصدق وواقعية الأحداث التي مرت بها وامتازت الموضوعات فيها بصلة وثيقة بالبلاد وأحداثها السياسية والاجتماعية وقضايا الشعب المصيرية. ونظرا للظروف المؤلمة التي تعرض لها القطران، فإن الشاعرين لم يأتيا بوصف تقريبي لأحداث التاريخ الحربي، بل كان تعبيرهما تعبيراً فنيا راقيا لموضوعات اتخذت من الواقع مادته الأولى.

وكانت المواطنة من الموضوعات المهمة التي فرضت نفسها، وكان لابد لنا من التطرق لها وتقسيمها حسب الرؤية التي توضحت لنا من خلال الرؤى التاريخية للبلدين، ومن خلال القصيدتين اللتين حملتا الحزن والألم على العالم الإسلامي. فكانت المواطنة الهوية تعبيرا عن الحالة الشعورية والاجتماعية والسياسية للإنسان قبل السقوط، والمواطنة الخائنة التي لعبت دورا في السقوط وضياع الحضارة و الوقوع في الهاوية، وأخيرا المواطنة المهزومة التي جاءت نتيجةً للسقوط فكان ما كان لها من الضياع والهزيمة والذل.

أ. المواطنة الهوية:

يبين الرندي هذه المواطنة من خلال الأبيات التالية:

يـا راكـبـين عِـتـاقَ الخـيـلِ ضـامـرةً كـأنـهـا في مجـال الـسـبـق عقبـانُ

وحـامـلـين سـيـوف الـهـنـد مرهَّـفـةً كـأنـهـا في ظـلام الـنـقـعِ نـيـرانُ

وراتـعـيـنَ وراءَ الـبـحـرِ في دَعـةٍ لـهـم بـأوطـانـهـم عـز وسـلـطـانُ[1]

توضح الأبيات السابقة ما كانت عليه المواطنة الهوية قبل السقوط، فبالرغم من المشاكل والفتن الداخلية التي كانت تعاني منها الأندلس.[2]

إلا أن الهوية التي كان يحس بها الإنسان الأندلسي كانت هوية إسلامية قوية، كما كانت كل الدول والبقاع الإسلامية في الشرق والغرب تحت مظلة الإسلام وتفخر بهويتها الإسلامية.

يصور الشاعر تلك المواطنة تصويراً كله فخر، فخرٌ بالهوية السائدة، وقد كانت الأندلس في أواخر القرن السادس الهجري، تحت ظل الموحدين، وكانت الحرب الجهادية مستمرة بينهم وبين الدول الإسبانية المعاصرة.[3]

وكان الوصف لتلك الفرس العتيق الأصيل الضامر النحيل الخصر السريع، الذي شبهه بالعقاب الكاسر ليبين القوة والسرعة في الانقضاض، ويتابع ليصل إلى السيوف التي كانت عدة المقاتل، ليصفها بالرقيقة الحد اللامعة في الحرب لشدة جلائها وصفائها، ليصف عيش المواطنين وحياتهم في النعيم والخصب والسعة والاطمئنان تلك هي المواطنة التي كانت تنعم بنوع من الاستقرار النفسي.

ويقول الشيرازي في المواطنة الهوية:

فـأيـنَ بـنـو الـعـبـاس مـفـتـخـر الـورى ذوو الخُـلُـق المـرضي والـغـرر الـزهـر؟

.....

أأبـلـغ مـن أمـر الخـلافـةِ رُتبـة هـلـم انـظـروا مـا كـان عـاقـبـة الأمـر ؟

.....

١- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٨٠

٢- انظر الباب الأول: انهيار الذات العربية.

٣- د. محمد رضوان الداية، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس.، مكتبة سعد الدين، بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ١٤.

وصـان بـلاد المسـلمـينَ صيانـةً بـدولـة سـلـطـانِ الـبـلادِ أبـي بكـر

مـلـيـكٌ غـدا في كـل بـلـدةٍ اسمـهُ عـزيـزاً ومحـبـوباً كيوسـف في مصر

لـقـد سـعـد الـدنـيـا بـه دام سـده وأيـدهُ المـولى بـأولـويـةِ الـنـصـر

كـذلـك تـنـشـا لـيـنـة هـو عـرقـهـا وحسُن نباتِ الأرض من كرم البذر

ولـو كـان كِـسـرى في زمـان حياتِه لـقـال إلـهـي اشـددُ بدولتـه أزري

بشكر الـرعـايـا صـينَ مـن كـل فِتنـةٍ وذلـك أن الـلـب يـحـفـظ بـالـقـشـر

يـبـالـغُ في الإنـفـاق والـعـدلِ والـتـقـى مـبـالـغـة الـسـعـدي في نُـكـت الـشـعـر

ومـا الـشـعـر أيم اللهِ لـسـت بمـدع ولـو كـان عـنـدي مـا بـبـابـل مـن سحر

هـنـالـك نـقـادون عـلـمـاً وخـبـرة ومنتخبو القول الجميل من الهُجر[1]

نرى المواطنة عند الشيرازي ذات هوية إسلامية، وتطغى فيها المعاني الدينية فكيف لا يعبر عن أفكاره الإسلامية إذ إنه تلقى المعارف الإسلامية ودرسها دراسة عميقة ولمس المعارف القرآنية منذ طفولته وقضى زمناً طويلاً من حياته في المراكز الإسلامية في بغداد التي كانت تعتبر في عصره مركز الحضارة الإسلامية كالمدرسة النظامية والمستنصرية، وكان معاصراً لأئمة العلماء وعباقرة الصوفية، فقد سافر إلى كثير من البلدان الإسلامية وتعرف على جمع غفير من كبار العلماء والفقهاء والمفسرين والفلاسفة.[2]

على هذه القاعدة الإسلامية نمت هويته الوطنية تجاه الأرض التي تعلم فيها وقضى فيها عمراً، وقوي الاعتزاز بتلك الهوية الراسخة في أعماقه، فالأبيات السابقة تفيض بمشاعر إنسانية وغيرة دينية صحيحة، وألفاظ تدل بكل وضوح على هوية دينية راسخة: بنو العباس/الخلافة/دولة السلطان أبي بكر/، وطعمها بصفات تأكيدا على تلك المواطنة: ذوو الخلق المرضي/ الغرر الزهر/شكر الرعايا/ محبوبا/يبالغ في الإنفاق والعدل والتقى.

«وواضحٌ هنا شعورهُ بالانتماء للخلافةِ العباسية وملوكُ بني العباس الذينَ هم في نظرهِ حماةٌ للإسلام والمسلمين وولاةٌ للأمور».[3]

١- د. شيرازي، سعدي الشيرازي، أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣٨و٣٩

٢- المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، سعدي الشيرازي أديب الفارسية وشاعرها الكبير من خلال مؤتمره في دمشق ٢٢-٢٥ نيشان ١٩٨٥ م، ص ٩٩و ١٠٠.

٣- د.أمل، الأثر العربي في شعر سعدي الشيرازي، (مرجع سابق)، ص ١٤٧.

ونراه كذلك يمدح مليكه أبا بكر زنكي حاكم إقليم فارس، و يعترف بفضل من سبقوه من الشعراء وعلو مكانتهم، ليؤكد انتماءه للبلاد التي اشتهرت بكل أنواع العلم والأدب.

ولعل في اقتباس سعدي من القرآن والسنة دليل آخر على الهوية الوطنية بالرغم من أصله الفارسي:

ولـو كـان كـسـرى في زمـان حياته لـقـال إلـهـي اشـدد بـدولـتـه أزري[1]

فيه اقتباس من قوله تعالى: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ ﴾ [2]، وهكذا فهذه القصيدة تظهر فيها المواطنة والانتماء على حقيقتها الإنسانية ومعناها الإسلامي أمةً واحدةً وجسدا واحداً.[3]

ب. المواطنة الضائعة:

وبإزاء المواطنة الهوية في قصيدتي الشاعرين، ظهرت أيضا المواطنة الخائنة، التي لعبت دورا في سقوط القطرين.

كانت الأندلس منذ أوائل عهد المسلمين بها ولاية تابعة للدولة الأموية في المشرق (دمشق)، ثم انفصلت واستقلت منذ زمن عبد الرحمن بن معاوية (الداخل)، وقد تحدد مصيرها منذ ذلك الوقت بأن تنقطع عن الدولة الأم، وأن تواجه حركة الهيمنة الأسبانية، التي بدأت صغيرة متواضعة ثم نمت مع مرور الأيام.

وظلت كفة المسلمين راجحة طوال عهد بني مروان ؛ فلما كانت مدة دول الفرق (الطوائف) ضعفت قوتهم وفشلوا، ونشبت الفتنة بينهم، وأضاعوا الجهاد، وأحلوا محله أطماعاً إقليمية ضيقة لم تنفعهم في دوام دنياهم بل كانت وبالاً عليهم وعلى أولادهم من بعدهم ؛ وجنت الأندلس من وراء ذلك خسارة جسيمة[4].

وهكذا شاعت الفتن والدسائس، وتفرقت كلمتهم، وغدر بعضهم ببعض، واعتدى قويهم على ضعيفهم، ولم يتورع بعضهم عن الاستعانة بملوك الفرنجة خصومهم على إخوانهم في الدين.[5]

وقد أوضح الرندي هذه المواطنة من خلال قصيدته وأشار إليها في أبيات كلها حزن وأسى وحسرة.

١- د. شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣٩
٢- سورة طه الآية، (٢٩)، (٣٠)، (٣١)
٣- د. أمل، الأثر العربي في شعر سعدي الشيرازي،(مرجع سابق) ص:١١٨و ١٤٩.
٤- د. الداية، أبو البقاء الرندي..(مرجع سابق)، ص ١١.
٥- أحمد عقون، رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي القديم ٣٩٩-٩٢٣ هـ، أطروحة ماجستير الأدب العربي القديم ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م بإشراف الدكتور جودت الركابي، جامعة قسطنطينة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، ص ٤٥و ٥١.

فـجـائـع الـدهـر أنـواع مـنـوعـةٌ ولـلـزمـان مـسـرات وأحـــزان

.....

كـم يـستغيث بنـا المستضعفون وهـم قـتـلـى وأسـرى فـمـا يـهـتـز إنـسـان

مـاذا الـتـقـاطـع في الإسـلام بينـم وأنـتـم يـا عـبـاد اللهِ إخـوانُ

ألا نـفـوس أبـيـات لـهـا هـمـم أمـا عـلـى الخـير أنـصـار وأعـوانُ[1]

يتحسر الشاعر على الهوية الضائعة و يستنهض تلك النفوس التي آثرت مصالحها الشخصية على مصالح الأمة لتعيد النظر في الذي تطلبه، فللزمان مسرات وأحزان، ويذكرهم بأنهم إخوة جمعهم دين واحد، فلم هذا التناحر، وكيف يقفون مكتوفي الأيدي يتفرجون على قتلى المسلمين وما يحرك أحد منهم ساكنا، وهكذا نرى الرندي يدعو إلى ترك الضعف والتقاطع والعودة إلى التعاليم والأخلاق الإسلامية، ويحاول أن يردها إلى مسارها الصحيح: عباد الله/إخوان/نفوس/همم/خير/ أنصار/أعوان.

ج - المواطنة المهزومة:

وأخيرا جاءت المواطنة المهزومة لتحل محل المواطنة الهوية التي كان يعتز بها الإنسان الذي كان ينعم تحت مظلة الدولة الإسلامية، فنرى الإحساس بالمواطنة المهزومة يتدفق عارما بعد الفتنة – فتنة السقوط – وتذكيه التشرد والضياع والجلاء والتمزيق، إن النكبة قلبت الحياة رأسا على عقب، واستبدلت الهوية بهوية جديدة هي هوية الشريد الطريد، وكانت بداية التحول، لكنه تحول من الإيجاب إلى السلب إن المغربين أو المشردين أو أبناء السبيل كلها تفيد مدلولا واحدا، هو تلك الهوية الجديدة التي استبدلوا بها هويتهم القديمة، حيث الانتماء والأمن والاستقرار واجتماع شمل الأحباب، وحيث العزة والكرامة.[2]

قال الرندي يصف المواطنة المهزومة:

يـا مـن لـذلـة قـومٍ بـعـد عـزهـم أحـال حـالـهـم كـفـر وطـغـيـان

بـالأمـس كـانـوا مـلـوكـاً في مـنـازلـهـم والـيـوم هـم في بـلاد الـكـفـر عـبـدانُ

فـلـو تـراهـم حـيـارى لا دلـيـل لـهـم عـلـيـهـم مـن ثـيـاب الـذل ألـوان

١- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٨١
٢- فاطمه طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، (مرجع سابق)، ص: ٩٢.

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتكَ أحزانُ

يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرقُ أرواح وأبدانُ

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجانُ

يقودها العلج للمكروه مكرة والعين باكية والقلب حيرانُ

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمانُ[1]

يصور الشاعر المواطنة المهزومة أوضح تصوير فيبدأها بالمقابلة التي تفيد التحول من حال إلى حال، من العزة إلى الذل، ومن المُلك إلى العبودية، وذلك تركيزا للتجربة، وترسيخها في المتلقي، فالمفارقة تتولد من هذه المقارنات والمقابلات و تتكرر لتظهر هذا البديل الأسوأ الذي صار إليه الحال، وهذه التجربة المريرة التي وضعوا فيها قسرا.[2]

ثم يتابع ليؤكد ويزيد من هول ما كان ليصور مشهد بيعهم رغما عنهم، وهم أحرار ليزيد من الإحساس بالذل، ومشهد آخر يبين فيه التفريق بين الأم وابنها، ولم يكن التفريق فقط بين الأم وابنها وإنما كان بين صاحب الأرض وأرضه، لينتقل إلى أفظع مشهد، مشهد الطفلة التي يقودها الكافر رغما عنها إلى فعل القبيح.

لقد أسدل الستار على دولة الإسلام في الأندلس بسقوط مدينة غرناطة آخر معقل لهم، وكانت خاتمة المسرحية مأساوية تمثلت في مصير آلاف من المسلمين الذين طردوا أو الذين واصلوا العيش ببلادهم تحت ظل السيادة النصرانية، وأصبحوا يعيشون في بلادهم مواطنين من الدرجة الثانية، في مجتمع لا يكن لهم إلا الحقد والضغينة وبدأت مأساتهم الجديدة بعد السقوط، فوصلوا إلى مرحلة التنصير الإجباري، لا حبا في النصرانية ؛ وإنما لقطع الصلة الروحية بين مسلمي إسبانيا وإخوانهم،ومن ناحية أخرى كانوا يجبرونهم، بكل الوسائل، على التخلي عن الفروض الإسلامية فيرغمونهم مثلا على الأكل مرات متعددة لإفساد صيامهم في رمضان، وكانوا كذلك يكرهون العجائز من النساء نكاية فيهن وقد طال عهدهن بالإسلام وبتقاليده من حلال وحرام، على أكل الخنزير وما أهل به لغير الله، كما يكره الصغار منهن على الاختلاط بدون ستر مع الغرباء، ولاقتلاع الجذور الإسلامية للأمة الأندلسية دينيا وفكريا واجتماعيا، بدأوا بحرق الكتب المتعلقة بالمعتقدات والمعاملات في الإسلام إمعانا في النكاية، بخلط المصاحف مع قداستها في نفوس المسلمين بالنجاسات وأخطر من ذلك في عملية الاجتثاث هذه هو تنصير صغار المسلمين من أطفال وفتيات، وفكريا كان بإتلاف

١- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٨١

٢- فاطمه طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص ٩٦.

عصارة تفكير أجيال، وصل إليها المسلمون بعد ثمانية قرون من الجهد واجتماعيا بجبرهم على تغيير أسمائهم العربية الإسلامية بأخرى إسبانية نصرانية، وكذلك تغيير ملابسهم العربية.[1]

فأصبحت الهوية مهزومة تعاني الذل والانكسار والتشريد، وكان الضياع، ليس بإرادتها وإنما رغما عنها، وتغيرت الأحوال وتبدلت إلى أكثر من أسوأ، وحيل بين الملِك وملكه، ورب الأسرة وأسرته، والأم وابنها، وصاحب الأرض وأرضه، والأكثر من ذلك حيل بين أمة ودينها وحضارتها.

ولم تخل قصيدة الشيرازي من المواطنة المهزومة، حيث إنها تتشابه مع قصيدة الرندي في تصوير الظروف التي مرت بها من فتنة و نكبة وضياع وسقوط، قال:

لأن هلاك النفس عند أولي النهى أحب إليهم من عيش مُنقبض الصدر

زجرت طبيباً جس نبضي مداويا إليك فما شكواي من مرض يبري

لزمت اصطبارا حيث كنت مفارقا وهذا فراقٌ لا يعالج بالصبر

تسائلني عما جرى يوم حصرهم وذلك مما ليس يدخلُ في الحصر

أديرت كؤوسُ الموت، حتى كأنه رؤوس الأساري ترجحن من السكر

.....

نوائب دهرٍ ليتني مت قبلها ولم أر عدوان السفيه على الحَبر

.....

غدا سمرا بين الأنام حديثهم وذا سمرٌ يدمي المسامع كالسمر

.....

تحية مشتاقٍ وألف ترحم على الشهداء الطاهرين من الوزر

هنيئا لهم كأس الموت مترعاً وما فيه عند الله من عظم الأجر

فلا تحسبن الله مخلف وعده بأن لهم دار الكرامة والبشر

عليهم سلام الله في كل ليلة بمقتلة الزورا إلى مطلع الفجر

١- د. جمعة شيخة، الفتن والحروب و أثرها في الشعر الأندلسي..(مرجع سابق)، ج ٢ الصفحات من ٣٠٩ إلى ٣٦٦.

.....

فليت صماخي صم قبل استماعه ... بهتك أساتير المحارم في الأسر

عدون حفايا سبسباً بعد سبسب ... رخائم لا يسطعن مشياً على الحُبر

لعمرك لو عاينت ليلة نفره ... كأن العذاري في الدجى شهبٌ تسري

وإن صباحَ الأسرِ يوم قيامةٍ ... على أمم شُعثٍ تساق إلى الحشر

ومستصرخٍ يالمروءةِ ! فانصروا ... ومن يصرخُ العُصفور بين يدي صقر ؟

يساقون سوق المعز في كبد الفلا ... غرائز قوم لم يعَودن بالزَجر

جلبن سبايا سافرات وجوهها ... كواعب لم يَبرُزن من خلل الخِدر

وعِترة قنطوراءَ في كل منزلٍ ... تصيحُ بأولاد البرامك من يشري ؟

تقوم وتجثو في المحاجر واللوى ... وهل يختفي مَشيُ النواعم في الوَعر ؟

لقد كان فِكري قبل ذلك مائزا ... فأحدث أمرٌ لا يحيط به فكري

وبين يدي صَرف الزمان وحُكمه ... مغللة أيدي الكِياسة والخُبر

.....

جرت عبَراتي فوق خدي كآبة ... فأنشأت هذا في قضية ما يجري[1]

يبدو أن المواطنة المهزومة في بغداد بعد سقوطها أكثر شدة منها في الأندلس ؛ حيث إن بغداد كانت عاصمة المسلمين ومقر الخلافة الإسلامية، وكانت ملجأ لكل المسلمين، فمنها تصدر الأوامر، ويولى الولاة، ويخرج الجيش، فبسقوطها سقطت كل الدول والدويلات الإسلامية التابعة لها في مشارق الأرض ومغاربها، وبسقوطها وانكسارها أمام المغول انكسرت النفوس الإسلامية وانهزمت في كل البقاع، وبسقوط الخليفة في الأسر وقتله قتلت وأسرت أرواح كل المسلمين.

تلك النكبة الدامية التي حلت بها من الإعصار المغولي بقيادة خانها السفاح هولاكو فقد كان لهذه النكبة شعور عام بالأسى والحزن العميق، والأسف البالغ، لما حل ببغداد وأهلها من التدمير

1- د. شيرازي، سعدي الشيرازي - أشعاره العربية (مرجع سابق) الصفحات ٣١ و ٣٤و٣٥و٣٦و٣٧و٣٨و٣٩

والتشريد والتقتيل مما لم تشهده مدينة من المدن التي اجتاحها ذلك الإعصار الذي لم يبق علائم للحياة، ومازال جرح هذه النكبة ينزف دما في نفوسنا،وسيبقى أثره عميقا ما دامت الأرض والسماوات لنذكرها جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن، وما زال شعورنا بهذه النكبة يزداد مرارة وألما، نحس بالأسى والرثاء لأولئك الذين حلت بهم تلك الكارثة التي صيرت بغداد مدينة خربة، عمها البؤس والظلام.[1]

وستظل كذلك قصيدة سعدي الشيرازي في رثائها تذكرنا دائما بما حل بقطر كان من أقوى العواصم الإسلامية على مر التاريخ، و أن سقوطه كان له وقع الزلزال في كل الأنحاء، وعلى كل النفوس التي كانت تشعر بغيرة وحمية على هذه الأمة وهذا الدين وبذلك كانت الهزيمة، هزيمة المواطنة العربية والإسلامية.

ولم يتوان سعدي في وصف تلك المواطنة وصفا يدمي القلب، فقد تمنى ألا يعيش حتى لا يرى بعينه خراب بغداد ويحدث ما حدث له من ألم وحسرة، فنراه يرثي ويندب بغداد على سقوطها ومقتل خليفتها وأسر بنيها وبنات حكامها ،ويصور الدمار والخراب وانتشار الموت والأهوال، وتمجيد الشهداء الذين دافعوا عنها ببسالة وصدوا العدوان بإيمان فاستشهدوا في سبيلها، يبين أن ذلك كان ألما فوق احتمال النفس،فيدور حوار بينه وبين من يسائله عما جرى يوم حُصرَ بنو العباس، فيسرد القصة من أولها إلى آخرها.

ونجد بذلك عنده الصورة الشعرية تنطق باللوعة والحسرة والألم مثلها مثل مشاعره.

أديرت كؤوس الموت حتى كأنه ... رؤوس الأسارى ترجحن من السكر[2]

فقد شبه القدر بالساقي، وساحة الحرب بالحانة، والمنية صهباء تصب في كؤوس للشاربين من الشهداء، وها هو القدر يقوم بدور الساقي فيدور على الثملين الشاربين بكؤوس المنايا، فهو تشبيه تمثيلي في صورة رائعة أجاد سعدي رسمها وتلوين أطرافها، فهو تشبيه يمتزج بالخيال ويقل حضوره بالبال وأدعى إلى الإعجاب، يلائم الغرض الذي سيق من أجله، وله إيحاءات نفسية وقيم جمالية معبرة بصورة بالغة ولا يكاد يكتفي شاعرنا بهذا القدر ولا يقف عند هذه المستويات الفنية، بل لا يكاد يقدر على إيقاف جماح نفسه الحزينة وتدفق مشاعره الفياضة بالأنين والأسى والحزن والألم، فيبالغ في تكوين الصورة الشعرية، فيقرر أن الأسارى قد انتشوا بما سكروا، فراحت رؤوسهم تتأرجح على أجسادها من شدة الثمالة وسورة الخمر التي أخذت بالرؤوس فتركتها تهتز وتتراقص.[3]

1- جمال الدين الآلوسي، بغداد في الشعر العربي من تاريخها وأخبارها الحضارية، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧ م، ص ١٣٦.

2- د. شيرازي، سعدي الشيرازي - أشعاره العربية (المرجع السابق) ص ٣١.

3- د. أمل، الأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي،(مرجع سابق) ص: ١٥٠و ١٥١.

وقد صور لنا سعدي محارم بني العباس ونساؤهم، في أبيات نقلنا فيها بأخيلته وصوره الجزئية والكلية إلى ما جرى لهن في أسرهن من هتك ستورهن وعدوهن حوافي صحراء بعد صحراء بعد أن كن لا يطقن المشي على الحرير، وإذا هن في ليلة نفرهن كأنهن شهب تسري في الليلة الظلماء، يسقن عاريات الرأس شعثا يستصرخن المروءة فلا يجدن معتصما، يسقن كما تساق المعز مع كونهن عزائز لم يتعودن الزجر.

وتحدث كذلك عن المستعصم في قوله: ومستصرخ يا للمروءة فانصروا، وأولاد البرامكة، في معرض حديثه عن عترة قنطوراء وهم المغول التتار الذين أهلكوا ودمروا، وهتكوا المحارم، وأسروا، يصور ذلك بكل حزن وألم وانشطار.

«فقد احترق قلبه فهيجه لنشرها واكتأبت نفسه لما جرى فحركته لإنشائها، أي أنه أراد مشاركة أحبائه من علماء تلك الديار وأدبائها ومشاطرتهم أحزانهم وآلامهم، فعبر عن تباريح ما ألم به من مصاب جلل»[1]

وواضح في أبيات الشيرازي أنه أبدع أجمل إبداع في تصوير الضياع بعد السقوط وما كان فيه من أهوال وتشريد وذل وهوان، جاءت أبياته لتبين في مواضع عن فقدان الهوية، فقد ضاعت الخلافة، وضاع التراث الإسلامي، وضاعت حضارة لها مبادئها ومكانتها على مدى قرون عديدة ولا يخفى على أحد أن الهوية والمواطنة إنما تكون أولا بالعقيدة، وممارساتها، واللغة وآدابها وأصولها، وبالتراث وما يقدمه للحضارة، وبالإنسان الذي يعبر عن تلك الهوية والمواطنة، وهي أطراف مشتركة تكمل بعضها بعضا لتعبر عن مجتمعٍ ذي هوية وكيان، وفي بغداد ونتيجة لنكبتها اختفت أغلب الأطراف، وضاعت الهوية.

لقد أدخلت هذه النكبة بغداد في عصور خيم عليها الاضطراب والتخلف والظلام ؛ لأن المغول من الأقوام البدوية المتوحشة التي لا تحترم الثقافات والحضارات، كما أنهم قوم غرباء عن الدين الإسلامي والحضارة الإسلامية، وعن اللغة العربية وآدابها وقد كان نصيب الأدب العربي من هذا التخلف كبيرا، وضرر النكبة عظيما، فقد أبادت عددا كبيرا من الكتب القيمة تمام الإبادة، وأهلكت عددا كبيرا من رجال العلم ولم يبق منهم إلا فئة قليلة مشردة الأذهان، وهكذا لم تعد بغداد تحمل طابعها الزاخر بالعلوم والآداب مما كان سببا في مضاعفة الألم، والحزن في النفوس.[2]

وقد ظهر ذلك جليا في قصيدة سعدي التي رسمت بدقة وصف عمق الجراح وهول المصاب، في فقد الهوية.

١- د. أمل، الأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي،(مرجع سابق) ص: ٩٦و ١٠٢

٢- عبدالكريم توفيق العبود، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ٥٤٧-٦٥٦ هـ، وزارة الإعلام، بغداد ١٩٧٦م، ص ١٨٨و ١٨٩.

المبحث الثالث

الغربة

أ: غربة الزمان

ب: غربة المكان

ج: غربة الإنسان

الغربة:

تمهيد:

يقول ابن منظور في مادة (غ ر ب):

«.... والغَرْبُ: الذهاب والتنحي عن الناس. وقد غرب يغرُب غربا وغرب، وأغر ب وغربه، وأَغْرَبَهُ: نحاه وفي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتغريب الزاني إذا لم يُحصن وهو نفيه عن بلده والتغريب: النفي عن البلد، التغرب: البُعد والغُربة والغُرْب: النزوح عن الوطن والاغتراب.

والغربة بهذا المعنى: مادية ومعنوية، وكلتاهما تعطي الغريب الإحساس بالوحدة والحزن وألم الفراق.

ويبدو أن الغربة ولدت مع الإنسان منذ بداية وجوده فهو منذ جاء الأرض وهو يحمل بين جوانحه ضروبا من الإحساس بالغربة حتى تلونت قطاعات عريضة من أدبه بهذا الإحساس.

وفي الحياة العربية وجدت دواع كثيرة للغربة والاغتراب، فقد كان القلق يسيطر على الإنسان العربي، ولذلك نرى في مطالع القصيدة الجاهلية في كثير من الأحيان حديثا عن الأطلال - بقايا وطنه المهجور – وإحساسا بالغربة بعد الأنس، وحنينا طويلا إلى ديار أحبابه الراحلين، وقد عرف الإنسان القديم ضروبا من الغربة، عبر عنها الشعر، وقد أسهمت الطبيعة وأسلوب الحياة والنظام القبلي والتنقل الدائم في تحديد غربته.إما أن يختارها وإما أن تكون مفروضة عليه.[1]

وجاء الإحساس بالغربة متزامنا و ضياع الوطن والأهل والأصحاب والأرض.

يقول حازم القرطاجني: وأحسن الأشياء التي تعرف، ويتأثر بها، أو يتأثر لها إذا عرفت، هي الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاذها، أو التألم منها، أو ما وجد فيه الحالان من اللذة والألم، كالذكريات للعهود الحميدة المنصرمة التي توجد النفوس، تلتذ بتخيلها وذكرها، من تقضيها وانصرامها..[2]

١- عبدالرزاق الخشروم، الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق ١٩٨٢ م، الصفحات من ١١إلى ١٥.
٢- فاطمه طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي،(مرجع سابق)، ص١٥.

وهذا ما نلحظه عند أبي البقاء والشيرازي، فكلاهما برز موضوع الغربة لديه وظهر ظهورا طاغيا على أي موضوع آخر، وذلك من الدافع الفطري الإنساني، وما اقتضاه الموقف الشعوري عند كليهما، حيث كان الناتج من الحوادث التي ألمت بالدولتين ناتجا أليما ممزوجا بالحنين والغربة لأطلال وطن لن يعود !

أ - غربة الزمان:

«هنالكَ جدليةٌ بين اللذةِ والألم، كما بينَ الغربة والحنين، أو الحاضرِ والماضي. فأحدُ الحدين متضمنٌ في الآخر، فالغربةُ تستدعي الحنين، والحاضرُ يستدعي الماضي، واللذةُ تستدعي الألم.»[1]

ولهذا نجد تركيز الشاعرين الأكبر على هذا الموضوع، حيث إن المشاعر كانت متقاربة، والمصير كان متشابها إلى حد كبير، وكذلك الألم والقهر والحزن، وأحيانا الفخر بالعهود الماضيات.

إن الناظر في القصيدتين عامة، وفي أبيات الغربة خاصة يرى مدى التوافق من الناحية الشعورية بين الشاعرين، ومدى التشابه في المعاني وما وراء الألفاظ من الأحاسيس التي جاءت ناتجة عن محنة ألمت بهما في بقعتين مختلفتين وفي أزمان مختلفة، ولكن ظل الشعور البشري بالرغم من البعد المكاني والزماني، وبالرغم من الاختلاف البيئي والجغرافي متشابها، بل واحدا لأن ما وحده هو الإسلام والعقيدة التي تهيج الغيرة على هذا الدين الذي وحد بين المشرق والمغرب ومحا الحدود والاختلاف الزماني والمكاني والجغرافي والبيئي بين الشعوب، إلى أن أصبحت قضيتهم واحدة، وهدفهم واحداً، وألمهم واحداً، وحزنهم واحداً، وغربتهم واحدة !.

قال الرندي شاكياً من تغير الزمن وتبدل أحوال المسلمين من عز إلى ذل وهوان:

هـي الأمـور كما شاهدتها دُوَلٌ مَنْ سره زمن ساءته أزمانُ

.....

يمزق الدهر حتما كلَّ سابغة إذا نَبَتْ مشرفيات وخرصان

.....

فجائع الدهر أنواع منوّعة وللزمان مَسَرَّات وأحزان

.....

١- فاطمه طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي،(مرجع سابق)، ص ١٥.

لمثل هذا يذوبُ القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان[1]

يبدو أن نزعة الغربة ضاربة في نفسه، فهو يعمد إلى تصوير الغربة ومعاناتها ويوضح ما حل بالقوم من انعدام للاستقرار، وتعرضهم للنكبات والأهوال، فكأن الماضي كان حلماً، وأزمانهم التي خلت في ظل الأمن والاستقرار واجتماع الأحباب لن تعود، ونجد لهفة إلى تلك الأزمان الماضية في ظل الاستقرار والنعمة.

كانت مشكلة الدهر وصراع الإنسان معه، عميقة الجذور، فالدهر دائما بالمرصاد يذل بعد العزة، يذهب بالشباب، يبعد عن المكان، يفرق بين الأحباب، يشتت العقد النظيم ؛ فيبكي الشاعر بحرقة، ويندب الماضي ويتمنى ويتحسر على المعاهد.

والشاعرُ مع الزمنِ، دائماً في حسابٍ وأهبةٍ وتحفزٍ وصراع، ينامُ خائفاً من هجومه وضرباته، فكأنهُ محاربٌ دائماً، هذه هي رؤية الشاعر للزمن، رؤية المعاناة، حيث تتبدل الأبعاد، وتتغير المقاييس، تبعا لذلك.[2]

وقد تغيرت الحياة بكل مقاييسها لمن اغترب عن وطنه، فكيف لا يراها من هذا المنظور الأليم !

وقال الشيرازي متألما من غدر الزمن بأهله وانقلاب أفراحهم إلى أحزان:

أَأَغـرَبَ مِن هذا ؟ يَعودُ كَما بَدا وَسَبيُ ديارِالسِلمِ في بَلَدِ الكُفرِ؟

.....

وَبينَ يَدَي صَرفِ الزَمانِ وَحُكمِهِ مُغَلَّلَة أَيدِي الكِياسَةِ وَالخُبرِ

.....

إلامَ تَصاريفُ الزَمانِ وَجَورُه تُكلّفا مالا نُطيقُ مِن الإصرِ

.....

ألا إنما الأيامُ ترجع بالعطا ولم تَكسُ إلا بعد كِسوتها تَعري

.....

١- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) الصفحات ٢٧٩و ٢٨٠و٢٨١.
٢- فاطمه طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي،(مرجع سابق) ص٥١ و ١٣٧.

أ لا إنَّ عَصري فيهِ عَيشي مُنَكَّدٌ فَلَيتَ عِشَاءَ المَوتِ بادَرَ في عَصري

.....

وسواءٌ إذا ما مُت وانقطع المنى أمخزنُ تبن بعد موتك أم تبر ؟[1]

يعبر الشاعر عن حرقة فؤاده لما آل إليه ذاك الزمان، فقد أصبح الزمن غير الزمن الذي عهدوه، سبيت بغداد وهتكت حتى أصبح الحال فوق ما يطاق، ونرى الغربة مرتبطة بالموت، ربما لأن الشعور بالاغتراب مستمد من إحساسنا بالحيرة والعجز عن فهم ما وراء الموت.[2]

والإحساس بالحيرة والعجز هو الإحساس الذي كان لأهل بغداد بعدما حل بهم من ضياع وتشرد، فأمر طبيعي أن يكون إحساس الشاعر هكذا أن تسود الدنيا في عينيه وأن يطلب الموت، وذلك لعظم المصيبة التي تركت النفس في اضطراب عميق والروح في تمزق بين داعي الحياة وداعي الموت، بين الأمل واليأس وبين الخيبة والرجاء.[3]

ب- غربة المكان:

« إنَ ارتباط الإنسانِ معَ الأرضِ يمكنُ رصدهُ من ارتباطٍ مادي عضوي، كارتباط النباتِ بها، إلى ارتباطٍ معنوي، حينَ اتصلَ بقضايا الحرية: (لاوطن بلا حريةٍ، ولاً حرية بلًا وطن)».[4]

لذلك نرى أن الغربة عند الشاعرين كانت أيضا مكانية، لما آل إليه الحال بعد سقوط الدولتين، وتشرد سكانهما إلى أراض جديدة غير أرضهم التي عاشوا عليها، وهذه الغربة لا تقل شدة وطأتها من الغربة الزمانية التي عانى منها الناس، وهذا ما أكده لسان كل من الشاعرين من خلال الأبيات التي بينت الغربة النفسية التي أحس بها من عانى من الدمار وذهاب الوطن.

« ومما أفاض الدموع في أشعارهم، وزاد من شدة لوعتهم أنهم يهاجرون إلى الأبد، إلى اتخاذ دار الهجرة مستقرا لهم... فقد كانت الهجرة في الماضي تعقبها العودة، أما الآن، فلا أمل في العودة. »[5]

يقول الرندي متحدثا عن غربة المكان:

وهذه الدار لا تُبْقِي على أحد ولا يدوم على حال لها شانُ

١- د. شيرازي، سعدي الشيرازي، أشعاره العربية (مرجع سابق) الصفحات من ٣٤ إلى ٤٠.
٢- د. ماهر حسن فهمي، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٧٠م، ص ٢٤٠.
٣- د. أمل، الأثر العربي في شعر الشيرازي، (مرجع سابق)، ص ٩٦.
٤- انظر، الخشروم، الغربة في الشعر الجاهلي، (مرجع سابق) ص ٤٣.
٥- انظر، فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي،(مرجع سابق)، ص ٤٧.باختصار.

.....

وصار ما كان من مُلْكٍ وَمَلكٍ كما حكى عن خيال الطيف وَسْنَان

.....

فاسأل بَلْنسية ما شأن مُرْسِية وأين شاطبة أم أين جَيَّانُ

وأين قُرْطبة دارُ العلوم، فكم من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نُزَه ونهرها العذب فَيَّاض وملآن

.....

وماشيا مرحا يلهيه موطنه أبعد حِمْصٍ تغر المرءَ أوطانُ[1]

نرى الشاعر يستفيض في التعبير عن الاغتراب المكاني، وكيف لا وهي الأندلس التي يرثيها، أندلس موطن الصبا والجمال والطبيعة، وهي البلد ذات الغياض والنافورات، التي كان التجار يتزاحمون على أبوابها، وهي الجنة التي كان يقصدها الناس من كل حدب وصوب.

ويبين الشاعر أن نزعة الحنين ضاربة بجذورها في المجتمع الأندلسي، مستولية على أعماقهم،وهذه النزعة تكشف عن خصوصية المجتمع الأندلسي المرتبط دوما بدائرة بيئته، المشدود إلى أهله وعشيرته لا يكاد يطيق الابتعاد عنهم والعيش في وسط آخر،وهو يظل متعلقا بوطنه مهما قست ظروفه عليه، وكذلك يتأمل الشاعر الماضي الذي ذهب إلى غير رجعة، والوطن الجنة الذي أصبح خبرا من الأخبار، مخلفاً في قلب الشاعر الصبابة والتذكار، إن العيش الخضر الذي تلاعبت به الخطوب، ومعاهد لم يبق منها سوى التذكار، لقد أصبحت بعيدة كل تلك المواطن.[2]

بلنسية و مرسية و شاطبة و جيان و قرطبة و حمص، إن الحنين في هذه القصيدة هو حنين إلى الجنة الضائعة، جنة الأندلس، وما جاء به الشاعر من وصف ومدح لتلك المدن الأندلسية ما هو إلا تأكيد للعلاقة القوية التي ربطت الأندلسي ببيئته وأرضه.

ويقول الشيرازي في السياق نفسه:

مَررتُ بِصُمِّ الراسياتِ أَجوبُها «كَخَنساءَ» مِن فَرطِ البُكاءِ عَلَى «صَخرِ»

١- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) الصفحات ٢٧٩و٢٠و٢٨١
٢- انظر، فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي،(مرجع سابق)، ص:٥٠و ٢٤٨.

.....

وَقَفتُ بِعَبّادانَ أَرقُبُ دِجلَةً كَمِثلِ دَمٍ قانٍ يَسيلُ إِلى البَحرِ

وفائضُ دَمعي في مُصيبَةِ واسِطٍ يَزيدُ عَلَى مَدِّ البُحَيرَةِ والجَزرِ

.....

فَلا انحَدَرَت بعدَ الخَلائفِ دِجلَةٌ وحافاتُها لا أعشَبَت وَرَقَ الخُضرِ

.....

بَكَت سَمُراتُ البيدِ والشيحُ والغَضَا لِكَثرَةِ ما ناحَت أَغاربةُ القفرِ

.....

وَقَفتُ بِعَبّادانَ بَعدَ صَراتِها رأيتُ خَضيباً كالمِنَى بِدَمِ النَحرِ[1]

يعبر الشيرازي عن عظيم ألمه،وحرقة فؤاده في الكارثة التي نزلت بالمدن الإسلامية وبآثارها، ودموعه تعبر عن فاجعته الكبرى، ولم تكن دموعه فقط وإنما دموع وبكاء الأشجار والنباتات والأزهار، كلها كانت تنوح من شدة ما أصاب ديار الإسلام.

ولم يبق من عاصمة الخلافة سوى أطلالٍ موحشة، ومنظر مؤلم باهت لنهر أحمر وبلاد مقفرة لا زرع فيها ولا لون، ولا تسمع سوى بكاءٍ.

ونلاحظ أن الصورة الأدبية عنده مرتبطة ارتباطاً طرديا مع العاطفة، أي أن الأبيات هنا موضحة العاطفة الصادقة النابعة من قلبه الحزين، المتأثر بصورة قوية لما حل ببغداد، وهكذا ترك أثرا في نفس السامع، فنرى أشجار السمر والشيح والغضا أصبحت أناساً أو فتيات تبكي.[2]

ج- غربة الإنسان:

نجد الغربة عند الشاعرين تفيض لوعة، وتفجعا على الوطن، وحنينا جارفا إلى المعاهد الماضية، والزمن المولي، حتى غدت الغربة محور القصيدتين.

وهكذا نرى الشيرازي والرندي يستفيضان في محور الغربة، ويكرران نفس اللوعة ويرددان نفس المنظومة بحثا عن الخلاص.

١- د. شيرازي، سعدي الشيرازي - أشعاره العربية (مرجع سابق) الصفحات ٣١و٣٤.
٢- د. أمل، الأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي،(مرجع سابق)، ص ١٥٢.

وإذا اتجهنا بتركيزنا قليلا نحو الأندلس، فسنرى أن الأحداث الخارجية، والاضطرابات الداخلية، لم تكن الباعث الوحيد على ظهور الغربة في شعر الرندي فهناك عوامل أخرى، نفسية، خاصة بالمجتمع الأندلسي، فهو مجتمع ميال بطبعه إلى الألفة، يكره الابتعاد عن وطنه، وترك أهله، وأي تغيير في نمط حياته، يعرضه لهزة نفسية وقلق مستمر، وذكر المقرى بعض الثوابت العقلية، وطباع المجتمع الأندلسي، منها ذلك الميل إلى تقديس الماضي والأسلاف، والسعي إلى المحافظة على المتوارث المعهود.[1]

ويمكننا القول: إنما هي مشاعر مشتركة مع أهل بغداد، الذين ذاقوا كما ذاق أهل الأندلس من ضياع، وغربة، فالأحداث وما ترتب عليها متشابهة، والإنسان هو الإنسان في إحساسه، عند فقده عزيزا، فما بالك بفقد الوطن!

وليس بالضرورة أن يحس الإنسان بغربته وهو بعيد عن وطنه، ولكن قد يحس بها وهو في ربوع وطنه، وبين أهله، وما آل إليه الحال في بغداد والأندلس بعد سقوطهما، وكيف أن الأحوال قد تبدلت بدخول التتار في بغداد والأسبان في الأندلس أدت إلى غربة المواطن في وطنه، وتلك فاجعة كبرى أن يحس الإنسان بغربة وهو في وطنه، وبين أهله، وعلى أرضه.

وهذا الرندي يقول:

لكل شيء إذا ما تم نُقصَانُ فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسانُ

.....

أين الملوك ذووالتيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شَدَّاد في إرم وأين ماساسه في الفرس سَاسَانُ

وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان

أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

.....

يا من لذلة قوم بعد عزهم أحَالَ حالَهم كُفرٌ وطغيان

بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم واليومَ هم في بلاد الكفر عبْدَانُ

١- فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي،(مرجع سابق)، ص: ٤٩.

.....

يـا رب أم وطـفـل حـيـل بـيـنـهـمـا كـمـا تـفـرَّقُ أرواح وأبـــــدان[1]

إن الغربة في رأي الشاعر لم تقتصر على الزمان والمكان الأندلسي بل توجه وجهة أخرى، بل أوشك الوجود الأندلسي أن يصبح في خبر كان.

ويؤكد هذا المعنى بذكره الأمم السابقة الفانية، التي كان ما كان لها من عز وشهرة، فأين ذهب أولئك ؟ وأين ما صنعوه وعمروه، وأين ما كنزوه من ذهب، جاء ومضى على الجميع كما مضى علينا أمر مقدر لا مرد له، وبذلك فلا تغتر أيها الإنسان، لأن لكل شيء نهاية.

ونلاحظ أسلوب الرندي المتنوع ما بين نداء واستفهام، وذلك ليبين أن الإنسان الغريب يكون مشحونا بالتوتر، ومن ثم يكون كثير الحركة في التعامل مع تلك الأساليب، فالنداء والاستفهام هنا يتجاوز المعنى النحوي واللغوي العادي إلى معنى ثالث أو رابع، إلى الدلالة المشحونة بالانفعال، والإحساس الإنساني.[2]

والشاعر يؤكد هذه الغربة بذكره الروح وكيف أنها اغتربت بخروجها من الجسد فالإنسان اغترب كذلك بخروجه من وطنه أو بتصيير وطنه وطناً لغيره، فالغربة غربة روح، كانت متعلقة وملتصقة بأرض تغيرت ملامحها وألوانها وهويتها رغما عنها إلى ألوان باهتة وملامح قبيحة وهوية مضطربة، فكيف يتأتى لهذه الروح أن تنعم بصورة جديدة لم تألفها وبجسد جديد لا يسعها !

ويقول الشيرازي في المعنى نفسه:

لِأنَّ هَـلاكَ النَفسِ عِندَ أولي النُهَى أَحَـبُّ لَهم مِن عَيشٍ مُنقَبِضِ الصَدرِ

.....

لَـزِمتُ اصـطِباراً حَيثُ كُنتُ مُفارِقاً وَهـذا فِـراقٌ لا يُعالَجُ بالصَّبـــرِ

.....

أيـا نـاصِحي بالصَّبرِادَعني وزَفرَتي أَمَوضِعُ صَبرٍ والكُبُودُ عَلَى الجَمرِ؟.

تَـهَـدَّمَ شخصي مِن مُداوَمَةِ البُكَى وَيَنهدِم الجُرفُ الدَّوارِسُ بالمَخرِ

1- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) الصفحات ٢٧٩و٢٨٠و٢٨١

2- فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي،(مرجع سابق) ص٤٨و ٢٥٢.

.....

فـجـرتُ مـيـاهَ الـعَـينِ فـازدَدتُ حُـرقَـةً كَما احتَرَقَت جوفُ الدَّماميلِ بالفَجرِ

ولا تَـسـأَلـنّي كَـيـفَ قَـلـبُـكَ وَالـنَّـوَى جِـراحَـةُ صَـدرِي لا تَـبَـيَّنُ بالسَّبـرِ

.....

مَحـاجِـرَ ثَـكـلَـى بـالـدُّمـوعِ كَـريمَـةً وَإن بَـخِلَت عَـينُ الـغَمَائِمِ بالقَطـرِ

.....

إذا كـانَ لِـلإنـسـانِ عِـنـدَ خُـطوبِـهِ يَـزولُ الـغِـنَـى، طوبى لِمَلَكة الفَقـرِ

.....

إذا شَـمِـتَ الـواشـي بِمَـوتـي فَـقُـل لَـهُ رُوَيـدَكَ مـا عـاشَ امـرؤٌ أَبَـدَ الدَهـرِ

.....

جَـرَت عَـبـرَاتـي فَـوقَ خَـدّي كـآبَـةً فَـأَنـشَـأتُ هـذا في قَضيَّةِ مـا يَجـري

.....

وَحُـرقَـةُ قَلبي هَيّجَتني لِنَشرِهَا كما فَعَلَت نـارُ المَجامِرِ بالعِطـرِ

سَـطَرتُ وَلـولا غَضُّ عَيني عَلَى البُكا لَـرَقـرَقَ دَمعي حَسرةً فَمَحا سَطري

.....

وَلا سَّـيـمـا قَـلـبـي رَقـيـقٌ زُجـاجُـه ومُمتَنِعٌ وَصلُ الزُجاجِ لَدَى الكَسـرِ

.....

وَرَبُّ الحِـجَـى لايَـطـمَـئِـنُّ بعيشَـةٍ فَـلا خَيرَ في وَصلٍ يُـرَدَّفُ بالهَجرِ[1]

غربة الإنسان عند الشيرازي واضحة ومؤلمة قدر ألم المصيبة، فقد تمنى ألا يعيش حتى لا يرى بعينه خراب بغداد، ويحدث ما حدث له من ألم وحسرة، فقد فاضت مشاعره بكل الأحاسيس والمشاعر

1- د. شيرازي، سعدي الشيرازي - أشعاره العربية (مرجع سابق) الصفحات من ٣١إلى ٣٩ .

الإنسانية. وقد أجبر الإنسان على الفراق، والفراق والغربة متلازمان شعوريا، فيشعر الإنسان بغربته بمجرد الفراق والبعد عن الحبيب، وإن كان الفراق في مساحة جغرافية واحدة.

ويستفيض الشاعر في ألفاظ البكاء والحرقة فهو في حزن يتأسف ويتلهف على ما آل إليه حال الإنسان، إنها الكآبة والحرقة هما اللتان دفعتاه إلى نظم هذه الأبيات وتصوير المعاناة، وكذا إحساسه المرهف، فقد احترق قلبه فهيجه لنشرها واكتأبت نفسه لما جرى فحركته لإنشائها.

أي أنه أراد مشاركة أحبائه من علماء تلك الديار وأدبائها ومشاطرتهم أحزانهم وآلامهم، فعبر عن تباريح ما ألم به من مصاب جلل، وأخذ يستمر في التعبير عما يلج في خاطره، وما يحس به حين شبه قلبه بزجاج رقيق، ولا يمكن التئام الجرح وتجبير الصدع بعد انكسار الكأس وتحطم القلب.[1]

وهذا الانكسار غربة ملازمة له طوال عمره، ولكن لابد من الصبر والسلوان، وهو ما يلجأ إليه الإنسان المصاب ليخفف عن نفسه أو غيره، وهو ما لجا إليه الشاعر وما اعتاد عليه في شعره، لينطلق على سجيته ببذل النصح وقول الحكمة وإيراد الموعظة التي تنهى عن الشر وتهدي إلى الخير.

١- د. أمل، الأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي، (مرجع سابق)، ص ٩٦.

الفصل الثالث

رثاء المدن والممالك: الموضوعات المتفاعلة

المبحث الأول: الزمن

زمن بناء الذات

زمن انشغال الذات

زمن غربة الذات

المبحث الثاني: المكان

المكان الحلم

المكان الوطن

المكان الطلل

المبحث الثالث: الإنسان

الإنسان الباني

الإنسان الهادم

الإنسان الضائع

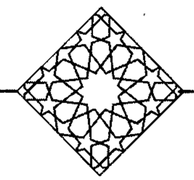

المبحث الأول

الزمن

أ: زمن بناء الذات

ب: زمن انشغال الذات

ج: زمن غربة الذات

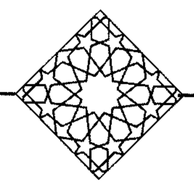

الزمن:

إن الزمن و المكان والإنسان زوايا ثلاث لمثلث لا تكتمل أضلاعه إلا بها، ولا يمكن أن تجد الموضوع الواحد دون أن يتأثر بالآخر، فالإنسان الذي يعيش تجربة ما يكون هو المحور الأساسي الذي يلعب فيه الزمان والمكان دوريهما، ولا يمكن بيان أية تجربة سواء أكانت سعيدة أم حزينة دون وجود الزمان والمكان اللذين تأثر بهما الإنسان وأثر فيهما، فكون التجربة الشعورية.

وحيث إن التجربة عند الرندي والشيرازي كانت المعاناة، فنراهما في توتر واضطراب والشاعر مع الزمن، دائما في حساب وأهبة وتحفز وصراع، ينام خائفاً من هجومه وضرباته، فكأنه محارب دائماً ،وقد دلت مؤشرات عديدة على هذه الرؤية، تجلت في ظروف الزمان، سواء بلفظها أو مفهومها.[1] وكذلك المكان لعب دورا رئيسيا، فهو ينمي مضمون الحرمان والمعاناة والاغتراب.

وللزمان مغزى خاص بالنسبة للإنسان، لأنه لا ينفصل عن مفهوم الذات، فنحن نعي نمونا النفسي في الزمان، وما نسميه الذات أو الشخص، أو الفرد لا تحصل خبرته، أو معرفته إلا من خلال تتابع اللحظات الزمانية والتغيرات التي تشكل سيرته،فالزمان هو الصورة المميزة لخبرتنا، لعلاقته بعالمنا الداخلي، بالانفعالات والانطباعات والأفكار، فكأن لا خبرة هناك إلا وهي تتسم بدليل زماني ملاصق لها.[2]

الزمان قضية أساسية، بل حقيقة حتمية لا مناص منها، تعايشه وتعيه جميع الكائنات على مختلف مستوياتها وتطورها، فالحضارات جميعها على مختلف العصور والأزمان لم تهمل العنصر الزمني بل أدركت حقيقته وأهميته، وتبعاً لذلك اخترعت الأساطير والرموز لتصويره، ثم شيدت الأدوات لقياسه، ونجد فيلسوف اليونان القديم أرسطو يعرف الزمن بأنه عدد أو سلسلة عددية موجودة في تصورنا نحن لأجزاء الحركة، سابقة وأخرى لاحقة، أي لبعد و قبل، ولا يكتفي بهذا التعريف بل

١- فاطمه طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، (مرجع سابق) ص: ١٣٧.

٢- هانز ميرهزف، الزمن في الأدب، ترجمة د. أسعد رزق مراجعة العوضي الوكيل، مؤسسة سجل العرب – القاهرة ١٩٧٢م، ص: ٧و٨.

يربط أصل فكرة الزمن بالإنسان، بمعنى يتعذر وجود الزمان بدون الإنسان.[1]

ووجود المكان لا يقل أهمية عن الزمان، فالمكان هو البيت الذي ولدنا فيه، والذي عشنا فيه الأحلام، وهو الوطن الذي ترعرعنا فيه، وأثر في شخصياتنا وأفكارنا ومعتقداتنا وخياراتنا، فارتبط المكان بالذكريات التي تجعلنا – وكذلك المتلقي – نستعيد تجربتنا.

والبيت مثل الوطن، يحمي أحلام اليقظة، والحالم، ويتيح للإنسان أن يحلم بهدوء إن الفكر والتجربة يكرسان وحدهما القيم الإنسانية، ولهذا فإن الأماكن تعيش معنا طيلة الحياة، وإن كل أماكن عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها، والتي استمتعنا بها وتآلفنا مع الوحدة ستظل راسخة في داخلنا لأننا نرغب في أن تبقى كذلك فالإنسان يعلم غريزياً أن المكان المرتبط بوحدته مكان خلاق، يحدث هذا حتى حين تختفي هذه الأماكن من الحاضر، وحين نعلم أن المستقبل لن يعيدها لنا[2].

وهذا ما سنلاحظه من خلال موضوعات القصيدة، والتفاعل معها وكيف أنها مرتبطة مع بعضها البعض، فالزمان يتأثر ويؤثر، بالإضافة إلى أنه لا يوجد مستقلاً عن المكان، والمادة، بل يندمج مع المكان مكونا كينونة واحدة تعرف بالزمكان، ويستعصي علينا إدراك الزمن دون الذات العاقلة، فنحن المدركون في هذا العالم.[3]

والإنسان هو المحور الأساسي هنا، فهو الذي يتأثر ويبين التأثير، وهو الذي يتفاعل بشكل رئيسي فينعكس ذلك عليه وعلى ذاته، بل قد تبقى آثار ذلك التفاعل في نفسه لزمن طويل، إن الترابط بين الزمان والمكان والإنسان لا يمكن الاختلاف عليه فالحياة الإنسانية تعاش في ظل الزمن، إذن فالذات الإنسانية هي المتأثرة بأوضاع كانت في زمان ومكان معينين جعلته يعبر وينفعل.

وكان التلازم الوظيفي بين الزمن والذات فيما يتعلق بالماضي، والماضي متعلقة به الذكريات، فكانت العلاقة وطيدة بين الذاكرة والذات، فالماضي يختلف عن المستقبل بأنه يترك آثاراً، في حين أن المستقبل لا يفعل.[4]

ولهذا كانت الذات مرتبطة بالمعاناة التي كانت في الماضي، ونراها في مواضع كثيرة متقوقعة في الماضي لا تريد الخروج منه، لقوة تأثير الماضي عليها، وضعفها أمامها وعجزها عن تخطيها والنظر إلى الأمام.

منذ بداية ظهور الإنسان على هذه الأرض، كانت هناك مؤثرات تؤثر فيه وعليه، وكذلك هو فقد

١- د. عبداللطيف الصديقي، الزمان أبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، ص: ٩و١٠و٤٠.
٢- غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ص ٣٧.
٣- د. الصديقي، الزمان أبعاده وبنيته، (مرجع سابق)، ص: ١١و١٢.
٤- هانز ميرهوف، الزمن في الأدب، (مرجع سابق)، ص ٤٩.

كان يؤثر في البيئة المحيطة به كما كانت تؤثر عليه، فالعملية تكاملية ولكل فعل رد فعل – كما هو معلوم – ومرت عليه ظروف وأهوال وأحوال على مر القرون، منها ما جعلته يكون إنساناً أفضل وشجعته على التقدم والرقي والتطور ومنها ما جعلته يذوق الويلات لضياع حقوقه وهدر إنسانيته ؛ فلا بد للإنسان أن يؤثر ويتأثر وهذا أمر طبيعي، والذي يعنينا هنا ما تفاعل معه من خلال أحداث مرت به قبل وأثناء وبعد سقوط وطنه، ورأينا أن ثلاثة عناصر رئيسة تفاعلت معه بصورة كبيرة وهي: الزمن، المكان والإنسان ويندرج تحتها عناصر فرعية.

والذات إنما نعني بها الروح التي سكنت وتعلقت وعاشت، والتي تأثرت وتنفست حضارة وتعاليم وتقاليد كبرت ونمت معه،فذات الشيء حقيقته، وذات نفسه أي سريرته المضمرة.[1] وتنوعت الاتجاهات الفكرية في تناول مفهوم الذات منذ الفلاسفة القدماء، وهذا ما يؤكده التطور التاريخي للمفهوم عبر الأزمنة المتعاقبة مما ترتب عليه تعدد التعريفات وتنوعها تلك التي تناولت مفهوم الذات عند الباحثين فهناك من يعتبرها الوصف الشامل الكلي، الذي يستطيع الفرد أن يعطيه عن نفسه في أي وقت يطلب منه ذلك، في حين يخصها البعض بإدراك الفرد لاتجاهاته ومشاعره ومعلوماته عن قدراته ومهاراته ومظهره وتقلبه الاجتماعي، ويعتبرها آخرون بأنها مجموع الإدراكات الكلية التي يكونها الفرد عن نفسه، واللغة التي يستخدمها لوصف ذاته.[2] ويتضح لنا أن الذات البشرية تتأثر بما حولها من أمور اجتماعية و اقتصادية وسياسية، وتتغير نواتجه بتلك التغيرات، ولهذا تغيرت الذات عند الشاعرين بظروف قد مرت بهما، والتغيرات التي أثرت فيهما من بناء وانشغال وانهزام كانت واضحة من خلال أبيات وردت في القصيدة، فكان التعبير منهما عن طريق القصيدة والألفاظ والصور ؛ حيث إنهما من أهل الفن الذي يجد في الشعر وصوره تعبيرا عن المكنونات الداخلية، لكن المقصود بالذات هو الذات الإسلامية عموما، وليس ذات الشاعرين فحسب.

أ. زمن بناء الذات:

إن بناء الذات – هنا – جاء مرتبطاً بالإيجابية، من خلال تفاعل الفرد مع الأحداث وتوجيهها بما فيه رضا الله ومصلحة المجتمع، لأن الدين الإسلامي بتعاليمه يبني في الإنسان المسلم الروح الإيجابية التي تؤهله للعطاء، وينمي فيه القدرة على الإنتاج والإبداع، ليعده إنساناً ناضجاً يستطيع أن يعيش حياته بالطريقة التي يرسمها الإسلام إنها عمل بناء وعطاء وتنافس في الخيرات، واستثمار للوقت والعمر والشباب والمال والحياة والطاقات، ويربط مفهوم الذات بمنظومة قيمية في مجال إيجابية السلوك بالإقبال على الحياة وإعمار الكون، والجدية في العمل والتفاعل مع أنشطة الحياة المختلفة بكل حماس ونشاط من غير تكاسل وفتور، حيث يطبق من خلالها منهج الله تعالى الشامل في الحياة،

١- ابن منظور، لسان العرب، باب الذال ج: ٦ ص: ١١.
٢- د. سعاد جبر سعيد، علم النفس المقارن،دار الكتب الحديث – الأردن١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص: ٩٩. وردت تعريفات كثيرة أخرى عن الذات في نفس المرجع.

ويتسم بتحمل المسؤولية مع الرغبة و الإقبال والرضا الذاتي والصبر وعدم اليأس[1].

في قصيدة الرندي نرى بناء الذات فرضاً للوجود الإسلامي في قطر أوروبي جديد كيف لا وهناك قوة وتصميم على حضور الذات وبنائها بين دول وجيران لا يجمعهم لا دين ولا لغة، فكان لابد من الرغبة والإرادة القوية في سبيل ذلك. يقول:

يـا راكـبـين عـتـاق الخـيـل ضـامـرة كـأنـهـا في مجـال الـسـبـق عـقـبـان

وحـامـلـين سـيـوف الـهـنـد مـرهـفـة كـأنـهـا في ظـلام الـنـقـع نـيـران

وراتـعـين وراء الـبـحـر في دعـة لـهـم بـأوطـانـهـم عـز وسـلـطـان[2]

نلاحظ من خلال أبيات الرندي أن بناء الذات كان مرتبطاً بالوجود الإسلامي والعربي ولا يمكن أن يكون ذلك بدون فتوح وقوة، فكانت الذات الإسلامية قوية المبادئ تسامحاً ومعاملات، وهكذا فرضت نفسها في بلاد كانت تنتظر بشغف من يخرجها من مستنقع الأسبان والكنيسة إلى حرية الإسلام، ومن ضياع الذات الإنسانية إلى رقيها واستقرارها ولم شعثها وانتصارها.

يقدم الرندي في هذه الأبيات الذات وبناءها في الزمن الجميل، ويوضح أن بناءها لم يأت على طبق من فضة، بل جاء بعد مناوَرات وحروب وتخطيط مسبق، وفي نفس الوقت كان الجمال والإباء حاضرين في صورة الرجل والذات التي بنت، فوصف الخيل والسيف أجمل وصف، إنها صورة تفيد الإعجاب والانبهار، وبوصفه الخيل والسيف تكتمل صورة الذات القوية المتمكنة التي حولت الحال إلى عز وسلطان. بالرغم من أن هذه الأبيات تخاطب الفاتحين المغاربة إلا أنهم شكلوا جالية هامة أسهمت في تأسيس البلد، ولهذا فهي معنية أيضا في هذه الأبيات.

فقد كان الإنسان الأندلسي ذا علاقة واهتمام بالخيل قبل مجيء المسلمين إليها ويعكس هذا الاهتمام به بوصفه أهمية هذا الحيوان وما يرتبط به من ذكريات بالإضافة إلى ما له من فوائد في مختلف ميادين الحياة وجوانبها العديدة، ويعرض الشاعر صفات الخيل من حيث مظهرها المتمثل في الجمال والرشاقة بما يبدو فيه الجواد في أبهى حلة مع تمثله في أكمل صفات القوة والسرعة وكرم الأصل،فهو جميل أنيق سريع.[3]

ولا يعدو أن يكون هذا الوصف الجميل للخيل مدحاً للفارس، فصورة الخيل وحده لا تكتمل إلا بفارس قوي رشيق سريع، وجاء الشاعر بهذه الأبيات التي نرى فيها فخراً وعزة بزمنٍ كانت الذات

١- د. سعاد جبر سعيد، علم النفس المقارن،دار الكتب الحديث – الأردن١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص ١١١.
٢- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٨٠.
٣- د. حازم عبدالله خضر، وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دائرة الشئون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٧ م، ص:٣٠و٣١.

الأندلسية فيها في أقوى عصورها وأجمل أحقابها.

جاء الرندي بالتعبيرات الدالة على أن الذات – وإن ذكر ما كان في الماضي – هنا ذات رؤى مستقبلية طموحة، كأنها لا تعترف بأن الأمور والأوضاع ستتبدل، فلا توحي بالنظرة التشاؤمية التي تزيد الطين بلة، فهو مازال معايشاً للأزمة والمعاناة، ولكن الذات هنا لابد أن تواجه المحنة لتقفز فوقها وصولاً إلى الجانب المشرق.

تواجهنا الحياة بمرها وحلوها، وفي آلاف مؤلفة من المواقف، التي تنال من مشاعرنا واهتمامنا، لأن من احترقت بدايته، أشرقت نهايته، ولأن الخطوة الأولى وما فيها من الجهد والضنك هي المؤشر الإيجابي لما بعدها، وفي مرحلة المعاناة الذاتية مع المصيبة أو المشكلة أو الواقع، لابد أن نربي ذواتنا على الإيجابية، فالمعاناة من سنن الحياة.[1]

وجاءت الإيجابية بتعبيرات موحية، تعطيك مجالاً للتأمل وشحذ الهمم لتخطي المحن، وتزرع الأمل والتفاؤل في نفس المتلقي، بهدف إبعاده عن اليأس والإحساس بالعجز الذي قد تفرضه المعاناة ومتى امتلأت الذات بالأفكار التفاؤلية والسعيدة، جلبت وجذبت إليها الظروف والمشاعر، ولابد من الانسجام والتوقع الإيجابي، والنظر إلى الحياة من زواياها المبهجة، وطرد الخوف ونبذ الحسرة وعدم طأطأة الرأس وغمسها في الطين ؛ بل التشبث بما هو جيد، وإن كان ماضياً، ولكن استرجاعه بهذه الصورة المشرقة، هو دافع لمواصلة الحياة بأعناق مرفوعة متفائلة متطلعة لمستقبل جديد وحياة أفضل، وعدم الاستسلام للحاضر الذي يحاول قمع الحريات وحبس الذوات التي خُلقت حرة، وجبلت على العزة والكرامة.

لقد كان وصف الشاعر للخيل والسيف ليس فقط لأنهما من الفنون الأدبية، ولا لأنهما من أدوات القتال فحسب وإنما لدلالتهما على الحياة النفسية والشعورية لأهل الأندلس وأنها القوة الموصلة للمجد، وهي تلقي أضواء كاشفة على نفسية الشعب الأندلسي كما تبرز مدى الارتباط الوثيق بين أوضاع الأمن في الأندلس والقوة العسكرية التي عمادها الأول على الرجل التقي الشجاع والخيل والسلاح.[2]

وهذا الاعتزاز يدل على الذات التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بكل ما حولها من أوضاع، والذات هنا لا تعبر تعبيراً فردياً و لا تجربة فردية، إنما هي تعبير عن واقع عام وتجربة عامة. إن التعبير بالصورة الشعرية عن الحقائق المجردة، ومضمون الحياة وكوامن النفس الإنسانية وأحاسيسها من مزايا اللسان العربي، وشاعرنا الأندلسي أضاف ما أوحت به الطبيعة الأندلسية وبيئتها الاجتماعية وما ألهبت الحروب الثغرية قريحته من أخيلة مبتكرة، وما أملته طبيعة التقدم والازدهار العلمي

١- د. سعاد جبر سعيد، سيكولوجية التفكير والوعي بالذات، دار الكتب الحديث – الأردن ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م، ص: ٢٩٦.
٢- موسى رزق ريحان، شعر الجهاد والحرب في الأندلس من الفتح حتى نهاية دولة المرابطين، أطروحة دكتوراه، بإشراف الأستاذ الدكتور محمد علي مكي.١٣٩٥- ١٩٧٥ م، جامعة الكويت، ص: ٤٥٥و٤٥٦.

والفكري والثقافي.[1] إذن فالذات كانت تنعم بالعز والتقدم والازدهار، وهذا ما تؤكده ألفاظ الشاعر، وصوره الشعرية، ولكن قد نتساءل كيف به يصور الخيل والسيف والحرب في وقتٍ كان الغرض من نظم القصيدة هو رثاء الأندلس ؟!

ونقول إن الشاعر الأندلسي إنسان قبل كل شيء يحس ويشعر ويتأثر بما حوله ولا بد أن يضاف إلى هذا – باعتبار كونه شاعراً – سرعة في التأثر ورهافةً في الحس وقدرة في التعبير والتصوير فهو إنسان فنان وليس إنساناً عادياً، فإذا ما تقلب في أحوال حياته ومرت به مراحل وأزمات وتحققت له أهداف وغايات أو بعدت عنه آمال وتمنيات ظهر ذلك في حياته فيكون قلقاً مضطرباً ضيق النفس، أو يكون مطمئنا فرحاً متفائلاً.[2]

و هذه الأبيات تبين زمن بناء وفخر وعز ضمن قصيدةٍ موضوعها العام هو الرثاء وهو أمر عادي بالنسبة لشاعر مر بظروف جعلته يذكر ذلك الزمن الذهبي، ويبدع في تصويره بألفاظٍ تدل على ما يريده من فخر، وتدل بشكل واضح على الجانب العسكري والحربي القوي الذي كان يتمتع به الأندلس وهو في أوج قوته وسلطانه.

وهكذا تبدو الأفكار والمعاني التي عرفها الشاعر في الأندلس في حلة زاهية وانسجام تام وتفاعل أدبي وذوقي مؤثر يؤدي إلى صورةٍ فنية رائعة ذات مشاهد وتفاصيل جزئية يكمل بعضها البعض حتى ليكاد يبدو وحدة متكاملة وصورة رئيسة تعبر عن معنى كبير واضح وهو التوجع والشكوى.[3] وهذا ينطبق على كل موضوعات القصيدة وصورها.

وفي قصيدة الشيرازي نرى بناء الذات في الأبيات الآتية:

تهنا بطيبِ العيشِ في مقعد الرضا ودع جيَفَ الدنيا لطائفةِ النسرِ

.....

ربحتَ الهُدى إن كنت عاملَ صالحٍ وإن لم تكن والعصر إنك في خُسر

كما قال بعضُ الطاعنين لقِرنِه بسُمر القنا نيلت معانقة الُسُمر

.....

١- المرجع السابق، ص: ٤٧٠.
٢- د. حازم عبدالله خضر، وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دائرة الشئون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٧ م، ص: ٢٢١.
٣- المرجع السابق،/ص: ٢٢٥و٢٢٦.

وصان بلاد المسلمين صيانةَ بدولة سلطان البلاد أبي بكر

مليكٌ غدا في كل بلدةٍ اسمهُ عزيزاً محبوباً كيوسف في مصر

لقد سعد الدنيا به دامَ سعده وأيده المولى بأولوية النصر

كذلك تنشا لينةَ هو عرقها وحُسنُ نبات الأرض من كرم البذر

ولو كان كسرى في زمان حياته لقال إلهي اشدد بدولته أزري[1]

نرى أن الذات جاءت في ظل التصور الإسلامي في أبيات الشيرازي، فالذات الإسلامية مجبولة فيه منذ الصغر، ويرجع ذلك إلى نشأة الشخصية الإسلامية وما جبلت عليه من شغف بالوعظ وحمية للدين.

ولهذا نرى الذات تعكس الشريعة السمحة في تفكير الشاعر وانفعالاته، فالتربية الإسلامية تدعو الفرد إلى أن يكون الإسلام هو الخلفية الفكرية التي تؤطر رؤيته للإنسان والكون والحياة، وهي المقياس للسلوك المقبول والمرفوض،وتقود مشاعره وحرصه على المصالح العامة ومصالح الآخرين، حيث ينأى بذاته عن المشاعر الأنانية التي تشرذم الذات، وتتقد فيه مشاعر إيجابية نحو أمته، ومما يسهم في تطوير ذاته، المساحات الثرية للقدوة والرمز، في حياة الأفراد والمجتمعات، حيث تشكل نماذج بشرية، تتسم بمفهوم إيجابي مرتفع لذواتها في ضوء النهج الإلهي يتسم بالتهذيب والانضباط.[2]

ونرى الشيرازي يدعو إلى بناء الذات، والرجوع بها إلى ما كانت عليه من العز والمكانة، بأن تترك الدنيا وتعمل من أجل الآخرة، فلا ازدهار للذات والعودة بها إلى ما كانت عليه دون الرجوع إلى التعاليم الإسلامية والزهد في الدنيا، فنراه يلجأ إلى الحكمة التي استلهمها من حسه الإسلامي، وفي إتيانه بالحكمة في هذا الموضع يحيلنا على القول أنها وسيلة لعرض أحداث تاريخية، قد يكون فيها شيء من التعزي عما ألم ببغداد.

تهنا بطيب العيش في مقعد الرضا ودع جيف الدنيا لطائفة النسر

.....

ربحتَ الهُدى إن كنت عاملَ صالحٍ وإن لم تكن والعصر إنك في خُسر[3]

١- د. شيرازي، سعدي الشيرازي – أشعاره العربية (مرجع سابق) الصفحات ٣٥إلى ٣٩
٢- د. سعاد جبر سعيد، علم النفس المقارن، (مرجع سابق)، الصفحات من ١٠٩ إلى ١١٢.
٣- د. شيرازي، سعدي الشيرازي – أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣٥و٣٨.

نرى الثقافة الإسلامية رافده الأوفى، فألفاظه في هذا البيت - وفي غيره من الأبيات- مستمدة من الدين الإسلامي الحنيف، وذلك يعبر عن شخصيته الإسلامية ونشأته الدينية وحياته الروحية.[1]

إن زمن بناء الذات عند سعدي الشيرازي مثل صاحبه الرندي، جاء مقترناً بالسيف والسلطان، لأن الذات في ذلك الوقت كانت واعية بدورها، متمسكة بمبادئ الدين الحنيف فقد اعتمدت الدعوة الإسلامية من أول نشأتها على نبذ العصبية، وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة صلى الله عليه؛ وسبب ذلك في العصبيات الجزئية تضعف من قوة المجموع الذي هو ناصر ومؤيد لها وقاهر لمن وقف في سبيلها، وكان المسلمون يرون أن لمن دخل في دينهم من الأمم الأخرى، لهم ما لهم من الحقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات، ونضرب مثلاً لذلك بما وصل إليه الأمر في الدولة العباسية فلم يكن للدولة في بدء حياتها عصبية قومية متحدة الأوصال وثيقة العرى، وإنما كان الإسلام هو الذي يجمع تلك القوى، لقد كان جامعا قوياً غير مدعم بعصبية قومية، ويمكننا القول إن الدولة العباسية على مبدأ إن أكرمكم عند الله أتقاكم.[2]

ولما كانت الذات تنعم في ضوء التصور الإسلامي، متأثرة تأثراً كبيرا به، جاء الشاعر – كما أسلفنا- في سبيل تطوير الذات ومحاولةً منه لإرجاعها إلى ما كانت عليه ؛ حيث إن الغرض العام هنا هو الرثاء ومحاولة استرجاع ما ضاع ولم أجزاء الدولة والشعب المشتت، جاء بالرمز والقدوة، فذكر مليكه السلطان أبا بكر والي إقليم فارس، جاء به نموذجاً يتسم بمفهوم إيجابي لما كان يتمتع به من صفات لابد من الرجوع إليها حتى تقوم الذات مرة أخرى وترجع لما كانت فيه من عز وسلطان، ولهذا يلجأ إلى وصفه الوصف المطلوب والمفقود في الذات العربية والإسلامية عزيزاً محبوباً كيوسف في مصر، جاء بهذه الصورة ليبين مدى حب الشعب لمليكه وأن الذي نريده هو العدل والحكمة وأن نتصف بما كان عليه الأولون، وحسن نبات الأرض من كرم البذر، يبين من خلال هذه الصورة أن الذات كانت كريمة الأصل فبكرمها صينت الدنيا وسعدت وشدت من أزر إخوانها فالشاعر هنا لا يأتي بأوصاف مليكه وما كان الزمن في ولايته، وإنما يسرد واقعا تاريخياً صادقاً، فقد استخدم سلاحه الأدبي ليبين تجربته الذاتية.

ويضاف إلى الصدق التاريخي هذا الصدق المتعلق بذات الشاعر حين تكشف المعاني المختلجة فيها، وتصرح بما يكتم منها، وتعترف بالحق في جميعها، وهذا قريب من الصدق الفني، أو إخلاص الفنان في التعبير عن تجربته الذاتية، بالإضافة إلى ما يبدو من موضوع الحكمة من إمكان رؤية التجربة الإنسانية عامة.[3]

١- د. أمل، الأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي،(مرجع سابق)، ص: ١٠٧.
٢- الشيخ الخضري، الدولة العباسية، مكتبة الإيمان – المنصورة، ص ٤٥٢و٤٥٦.
٣- أ.د عبدالله التطاوي، بين التاريخ والشعر في خلافة بني العباس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٠م، ص: ٣١٩و٣٢٠.

وهكذا فزمن بناء الذات كان متزامناً مع بناء الحياة والحضارة، مرتبطاً ومتصلاً مع مبادئه، وكان وليد هذا الارتباط ذاتا متزنة متميزة عن غيرها واثقة ذات هيبة في مجتمعها، أدى إلى وصولها إلى مرحلة مهمة في نموها وهو الوصول إلى السلام الداخلي،الذي يذهب بصاحبه إلى تحري السلام في المجتمع.

إن السلام الداخلي، قيمة نادرة، تحققت في ضوء التربية الإسلامية في أسمى صورها، حيث هناك تناغم لا صراع في أعماق الذات المسلمة، نابع من السلام الداخلي في الأعماق، التي تتسم بالنسق المثالي والواقعي معاً، فتثريها بالطهر السلوكي، وتخلق أفراداً يتمتعون باستقرار عاطفي، ويكونون مجتمعاً صحياً مستقراً ويكون نتاج ذلك إنساناً صالحاً معتدلاً في سلوكه وتطلعاته وعبادته ومشاعره وانفعالاته، فيحفظ بذلك المجتمع من الغلو والصراع والتصادم والاختلال.[1]

وهذا ما كانت عليه المجتمعات الإسلامية في زمن بناء الذات، لا أقول إنها كانت مثالية، ولكن كان الغالب عليها الأمن والاستقرار والرخاء والسلطان، وهو معجزة في حد ذاتها أن تستظل كل البلاد في رقعة جغرافية واسعة تحت إمرة خليفة واحد يدينون له بالسمع والطاعة، وتتميز كل الذوات في تلك البقاع بميزات إسلامية واحدة، وتنتهج منهجاً موحداً في حياتها، وتذوب في مبادئها بل وتدافع وتذود عنها بأرواحها، تلك الذات كانت أبية مترفعة قوية.

ب. زمن انشغال الذات:

إن انشغال الذات من الأسباب التي أدت بها إلى نهج طريق لا يناسبها، واتباع مسلك لا يعقبه خيرٌ لها، فانشغلت عما ينفعها إلى ما يضرها، لأسباب يمكن أن نعزوها إلى دوافع أو صراع بين الدوافع، وهذا ما يكون عندما تبتعد الذات عن منظومتها التي خلقت من أجلها، والتي تكفل لها الأمن والسلام، وهذا الصراع هو الذي يدفع الذات إلى الانشغال عن مصلحتها.

تضمن الشريعة السمحة، مساحات ثرية، في ترسيخ الالتزام والوعي في الشخصية المسلمة، في أطر من الأمن والسكينة، والمجتمع المتكافل المتوادد المتراحم، بحيث تكون بعيداً عن تأجج الصراعات النفسية بين الدوافع المختلفة، ويأتي الصراع من الخروج عن منهج الله تعالى، واستغلال الوقت والجهد والمال في الدنيا، بلا طائل في أطر المتعة الزائلة، عوضاً عن استهلاكه في المستقبل الأخروي، وأرصدته الخالدة، لأنها الأصل ودار الجزاء، والدنيا دار العمل والتكليف،ولهذا راعى الإسلام الدوافع النفسية في الفرد، وإشباعها في ضوء القنوات الشرعية، بعيداً عن السبل التي نهت عنها الشريعة السمحة، فالإسلام دين واقعي، يخاطب الإنسان في أعماقه وكينونته، وهو مكرم لا محالة بين يدي الله تعالى، ومن هنا ضبطته في سلوكه ولم تتركه هكذا عبثاً، بل وازنت بين متطلبات عقله ومشاعره

١- د. سعاد جبر سعيد، علم النفس المقارن، (مرجع سابق) الصفحات ٢٧٥و٢٧٦و٢٧٧.

وجسده ومجتمعه، في أطر شاملة إنسانية، متسقة، بعيدة عن التناقض والتضاد.[1]

ويكشف الرندي عن انشغال الذات من خلال الأبيات التالية:

وينتضي كل سَيفٍ للفناء ولو كان ابن ذي يزن والغمد غِمدانُ[2]

أين الملوك ذوو التيجان من يمن وأين منهم أكاليل وتيجان[3]

وأين ما شاده شداد في إرم وأين ما ساسه في الفرس ساسان[4]

وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عاد وشداد وقحطان[5]

.....

دار الزمان على دارا وقاتله وأمّ كسرى فما آواه إيوان[6]

.....

فجائع الدهر أنواع منوعة وللزمان مسرات وأحزان

.....

يا غافلاً وله في الدهر موعظة إن كنت في سنة فالدهر يقظان

.....

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد الله إخوان[7]

ونرى من خلالها أن الذات قد ابتعدت عن نهجها القويم، ولهثت وراء متاع الدنيا وآثرت ما هو زائل على ما هو خالد، وكانت النتيجة الحتمية هي ضياع الزائل والخالد لها، ليزكي موقفه التاريخي جاء بسير وشخصيات أمم سابقة، وما كان لها من عز وسلطان ومكانة، ولكنها آثرت الدنيا على الآخرة، أو انشغلت عن الآخرة، فيتساءل أين هي الآن ؟ بل يستنكر ذلك عليهم، في أنهم يعلمون تمام

١- د. سعاد جبر سعيد، علم النفس المقارن، (مرجع سابق)، الصفحات ١٣٤و١٣٧و١٣٨

٢- سيف بن ذي يزن من ملوك اليمن، وغمدان قصر كان له.

٣- هم ملوك اليمن من قضاعة، وهم التبابعة.

٤- قيل في إرم أقوال منها أنها دمشق والإسكندرية، وساسان أبو طائفة عظيمة من ملوك الفرس.

٥- نقل المفسرون في قارون أقوالاً منها أنه كان غنياً عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم.

٦- هو دارا الأصغر قتله أصحابه في معركته مع الاسكندر، والإيوان هو إيوان كسرى الذي بالمدائن.
انظر في ذلك في" أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس" للدكتور محمد رضوان الداية ص: ١٤٤و١٤٥

٧- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٧٩الى ٢٨٠

العلم مصير من ينشغل عن الحقيقة، ورغم ذلك يكررون أخطاءهم، ولا يعتبرون منها ؟

لقد وردت بعض الإشارات القصصية داخل النص الشعري، وهي إشارات تعتمد في أغلب الأحايين على الحكاية ولو بشكل بعيد، لتعبر عن رؤى خاصة.[1]

ولهذا نرى في شعر الرندي - وهو شاعر رثاء الأندلس- مجموعة من القصص، بل إشاراتٍ موجزة تدل على قصص تاريخية مشهورة متداولة بين الناس، وكأنه بذلك يستشف مستقبل الأندلس وقد ضاعت، في أنها ستكون من بين هذه الأمم السابقة وسوف يتداولها الناس على أنها كانت حضارة إسلامية في الأندلس، نرى مشاعره من بين الألفاظ تتدفق إلينا بسهولة، وهي مشاعر الحزن وضياع الذات، ولكنها قد تكون أيضا قصصاً أتى بها ليتدارك القوم ما كان، وليشحذوا الهمم في سبيل إنقاذ ما يمكن إنقاذه وترميم ما تبقى.

لقد كانت الأندلس دار خصب ونماء وغنى، وموطن حضارة ولهو وجمال، فانصرف أهلها إلى متع الحياة يتذوقونها، فأسرفوا في طلب الملذات، ولم تجد من الملوك والفقهاء ما يزرعونه لأنهم لم يروا في عبث الناس ومجونهم ما يخشى منه على الدين ما دامت له الحرمة في النفوس، ولهم السلطان العزيز، فأرخوا عنان التساهل وأباحوا حرية القول والعمل، فساءت الأخلاق، فكان ضرر هذا التسامح أبلغ من ضرر التعصب والاستبداد.[2]

فكأنه من خلال الأبيات هذه يبين فيما انشغلت الذات فيه من خلال القصص المذكورة، فذكر الأمم السابقة التي اهتمت بمبانيها وقصورها وسلطانها، فانصرفت عن الرعية، وانشغلت وتشاغلت عن دورها لمصالحها الخاصة، وفي موضع آخر يبين القتل بين الأصحاب والخيانة، وكأنه يشير إلى التناحر والفتن والعداوة بين الملوك والأمراء في الأندلس، ولم يشر إليها عبثاً، بل كانت محاولة منه لوقف التناحر وليعتبر أولو الأبصار، ولترجع الذات لما جبلت عليه من تعاليم الدين الإسلامي، الذي هو المخرج الوحيد، والذي بغيره لن ترجع الذات العربية والإسلامية لما كانت عليه من عز وسلطان وسؤدد.

ونرى تشابهاً كبيراً في انشغال الذات بين الشاعرين، يقول سعدي:

لحى الله من يسدي إليه بنعمة وعند هجوم الناس يألف بالغدر

.....

كأن دم الأخوين أصبح نابتاً بمذبح قتلى في جوانبها الحُمر

١- د. عبدالله بن علي بن ثقفان، المقومات الفنية في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، ص: ٩٣.

٢- محمد بوذينة، أبو البقاء الرندي ورثاء الأندلس، (مرجع سابق) ص: ٤٥.

.....

رعى الله إنساناً تيقظ بعدهم لأن مصاب الزيد مزجرة العمرو

.....

وراءك يا مغرور خنجر فاتكٍ وأنت مطاطٍ لا تفيقُ ولا تدري

كناقة أهل البدو ظلت حمولةً إذا لم تطق حملاً تُساقُ إلى العَقرِ

وسائر ملكٍ يقتفيه زواله سوى ملكوتِ القائمِ الصمد الوتر

.....

أمدخر الدنيا وتاركها أسى لدار غد إن كان لابدَ من ذُخر

على المرء عارٌ كثرةُ المالِ بعده وإنك يا مغرور تجمعُ للفخر

.....

يا فاعل الذنب هل ترضى لنفسكَ في قيد الأساري وإخوانٌ على سُرر[1]

الغدر/ دم الأخوين/مغرور/ لا تفيق ولا تدري/أمدخر الدنيا/عار/يا فاعل الذنب/تجمع للفخر، نرى الألفاظ السابقة تدل على انشغال الذات انشغالاً واضحاً وتوضح أنها انشغلت بالفتن الداخلية وباللهث وراء الدنيا الفانية، والجمع لها وللتفاخر بين الناس، وبالمجاهرة بالذنب، مما جعلها تحيد عن نهجها السليم إلى نهج ترفضه الفطرة البشرية، فكانت النتيجة ما لحق بهم من ذل وتشريد وضياع.

لحى الله من يسدي إليه بنعمة وعند هجوم الناس يألف بالغدر

.....

كأن دم الأخوين أصبح نابتاً بمذبح قتلى في جوانبها الحُمر

.....

١- د. شيرازي، سعدي لشيرازي – أشعاره العربية (مرجع سابق) الصفحات من ٣١ إلى ٤١

وراءك يا مغرور خنجر فاتكٍ وأنت مطاطٍ لا تفيقُ ولا تدري[1]

ينصحهم الشاعر بأن يفيقوا ويتعظوا بما حل بهم، أو ربما تكون تحذيرا لمن يأتي بعدهم أن هذه هي نتيجة انشغال الذات، وهذه عقبى الغافلين، وليحذروا من غدر النفوس الخائنة.ونراه يؤكد على أخوته للشهداء.[2] وألا يغتروا بالدنيا ولا بسلطانهم، بل يحترسوا من غدر الزمان والأصحاب، لأن الغدر لا يأتيك إلا وأنت منشغل عنه بأمور أخرى حجبت عنك الحقيقة، وأعمت بصيرتك.ويتابع نصحهم في محاولة مستميتة لأن يتيقظوا، ويعيدوا للذات عزها، ولعل ما أصاب بغداد يكون عبرة ودرساً لمن يأتي بعدهم، أو حتى لمن هم في بقاع إسلامية أخرى، وكأنها لا تسمع ولا ترى بما حل بعاصمة الخلافة، وبالمسلمين !

وجاء هنا بخبر بمعنى الدعاء. نلاحظ الذات في هذا الموضوع ماضوية، مازالت متعلقة بالماضي و بالأمم السابقة، ولكن تعلقها هنا سلبي، فهي عاجزة عن تخطي الماضي لتستشرف المستقبل، فهي ذات نظرة تشاؤمية، استطاعت المعاناة الحاضرة أن تؤثر عليها سلباً، فلم تعد قادرة على تجاوز الأزمة، تخيم عليها الأفكار التشاؤمية خائفةً مترددة فعجزها عن تصحيح الأخطاء جعلها تتمسك بالماضي، فهي شخصية اكتئابية غير مستقرة تتسم بالحزن واليأس والصعوبة في التفكير.[3]

رعى الله إنساناً تيقظ بعدهم لأن مصاب الزيد مزجرة العمرو[4]

و يرى سكوت المسلمين وصمتهم وجمودهم، وعدم حراكهم لنجدة إخوانهم ذنباً حيث يستنكر ذلك منهم ويدعوهم إلى ترك سرورهم والهبة لنجدة المسلمين، فانشغال الذات عند سعدي لم يكن فقط في بغداد وإنما في البلاد الإسلامية الأخرى التي لم تهب لنجدتها.

وهنا نلاحظ الذات الآنية أو الراهنية التي تكيفت مع الأوضاع، فهي تريد أن تتقبل الوضع الراهن بهدف مواصلة الحياة، وتشجيع غيرها على وجود ذوات تشاركنا المعاناة تتطلب أن نساعدها على التكيف، ونأخذ بيدها لا بزيادة حجم المصيبة وإنما برؤية واضحة الأوضاع، ومن زاوية أخرى قد تعطينا بارقة أمل في حاضر يوصلنا لغد أفضل، فالذات مسئولة مسؤولية فرضها عليها الدين في أن يقف المرء مع المنكوب، والوقوف معه هنا ليس بمشاركته البكاء ليزيد همه هما، وإنما بالتخفيف ومحاولة إخراجه من دائرة اليأس والتشاؤم، وجعله يواصل مسيرته التي خلق من أجلها.

ونرى في الأبيات عاطفة حارة صادقة، تنعى انشغال الذات وتخليها عن الأخلاق السامية، وفقدانها روح التضحية وضعف العزيمة، وانهيار القوى، وضياع الأرض،وقد ركز الشاعر على العاطفة

١- د. شيرازي، سعدي الشيرازي - أشعاره العربية (مرجع سابق) الصفحات ٣١إلى ٣٨
٢- د. أمل، الأثر العربي في شعر الشيرازي. (مرجع سابق) ص ١٦٣.
٣- د. سعاد جبر، سيكولوجية التفكير والوعي بالذات، (مرجع سابق) ص: ١٥١و١٥٢.
٤- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٣٨

الدينية والحكمة كي يذكي همم النفوس ويعيد الذات إلى ما هي أهل له، ونلاحظ استخدامه الحكمة.

وسائر ملكٍ يقتفيه زواله سوى ملكوتِ القائمِ الصمد الوتر

.....

أمدخر الدنيا وتاركها أسى لدار غد إن كان لابدَ من ذُخر

على المرء عارٌ كثرةُ المالِ بعده وإنك يا مغرور تجمعُ للفخر[1]

نلاحظ أن السبب الرئيسي لانشغال الذات هي الدنيا وتناسي الآخرة على أنها الدار الباقية، وإن لم يقم سعدي هنا باقتباس مباشر من القرآن الكريم إلا أنه تمثل الدين الإسلامي وفكره، ونراه يدعو هنا إلى تعاليم الدين الحنيف في أن نعمل للآخرة كأننا نموت غدا وللدنيا كأننا نعيش أبداً.

وراءك يا مغرور خنجر فاتكٍ وأنت مطأطٍ لا تفيقُ ولا تدري

.....

على المرء عارٌ كثرةُ المالِ بعده وإنك يا مغرور تجمعُ للفخر.[2]

ونلاحظ كذلك تكرار النداء في الأبيات السابقة في أكثر من موضع، والنداء هنا قد خرج من معناه الأصلي إلى معنى التحسر على فداحة ما نزل، والنداء من خصائصه في الأصل أنه يفرغ ما في النفس من شحنات عاطفية تتبدى تارة في الألم والحسرة وأخرى في الرغبة والتوق إلى ما يريد أن يحصل عليه الإنسان.[3]

وما يريد هنا سوى أن تعود الذاتُ ذاتًا عربية عزيزةً أبيةً.

ج- زمن غربة الذات:

تواجه الفرد في رحلة الحياة عقبات ومصاعب، تتطلب تجاوزها، برفع مستوى حافزية الذات، ودافعيتها للحياة والعمل والعطاء، فيتم تجاهلها، والمضي مع حركة الكون نشاطاً ومثابرة ؛ لأن الحياة ليست على نسق واحد، ففيها من المتاعب والآلام وإنها تتطلب نفوساً قوية، ومعنويات عالية، وهمة متقدة،وأملاً بساماً، ولذلك فغياب تلك المعاني أو بعضها، هو الذي يوصل الذات إلى حد الانهزام أمام الحياة ومن هنا فإن الإحباط حالة انفعالية غير سارة قوامها الشعور بالفشل وخيبة الأمل تتضمن

١- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) الصفحات من ٣١إلى ٣٨.
٢- المرجع السابق ص ٣٨.
٣- أحمد عقون، رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي القديم ٣٩٩-٩٢٣هـ)، أطروحة ماجستير في الأدب العربي القديم بإشراف الدكتور جودت الركابي. ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧ م جامعة قسطنطينة، ص: ٣٢٢.

إدراك الفرد لوجود عقبات تحول دون وصوله لحاجاته،وبناءً عليه فإن تداعيات الشعور بالخيبة تؤدي إلى ارتداد الشخص نحو ذاته والانسحاب من المجتمع والحياة حيث يميل الإنسان إلى اجترار الهموم وتقبل أفكار الخيبة والفشل، وينحدر إلى درجة كراهية الذات ولوم النفس ومحاسبتها وتحميلها مسؤولية الفشل.[1]

إن الذات عند الشاعرين مرت بظروف محبطات أثناء أحداث وتداعيات مهمة جداً في حياة كل منهما، ولهذا جاء الإحساس بالخيبة والفشل في أمر ربما لم يكن لهما دخل فيه، ولكنها الحمية والغيرة على الوطن والدين هي التي تجعل الإنسان يحس بالآخرين، ويتجرع مثلهم الألم والحسرة، ويحس بالمسؤولية اتجاههم، ويحاول أن يساعدهم على شق طريقهم من جديد، فهذه هي مبادئ ديننا الحنيف، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي نفوس الجميع، وأخذت الذات تحس بإحباط وغربة وهذا ما نراه واضحاً من خلال أبيات الشاعرين.

يقول أبو البقاء الرندي:

يمزق الدهر حتما كلَ سابغة إذا نبت مشرفيات وخرصان[2]

.....

أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلك ومَلك كما حكى عن خيال الطيف وسْنانُ

.....

تلك المصيبة أنست ما تقدمها ومالها مع طول الدهر نسيان

.....

يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان

.....

لمثل هذا يذوب الإنسان من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان[3]

نلاحظ غربة الذات وتمزقها وقلقها في أبيات الشاعر فبدأها متشائماً منكسراً بأن الموت آتٍ

١- د. سعاد جبر، سيكولوجية التفكير والوعي بالذات، (مرجع سابق) ص: ٢٢٧و٢٢٨.
٢- السابغة: الدرع، المشرفي: السيف، الخرص، الرمح.
٣- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) الصفحات من ٢٧٩الى ٢٨١.

لامحالة، ومن لم يقتل في الحرب مات بانقضاء أجله، فذكر الموت الذي هو من علم الغيب، يوحي بخوف وترقب حيث إن الإنسان دائم التوجس لما هو مجهول، وانقضاء الأجل بهذه الصورة يوحي بغربة الذات المضطربة التي أصبحت غير متزنة، ضائعة بين سراديب القلق والخوف والألم والخيبة. وهنا يأتي بصورة معبرة عن مدى الغربة التي تعانيها الذات، والعبارات تؤكد بقوة وحضور عن ذلك يمزق الدهر/أمر لا مرد له/المصيبة/مالها على طول الدهر نسيان/حيل بينهما تفرق أرواح وأبدان/يذوب الإنسان من كمد، كلها عبارات تدل على العجز في مواجهة الأمر،وتوحي بالعجز عن النسيان، وبأن المصيبة قد زقت الأرواح والذوات وجعلت للهم والحزن الذي لا يستطاع إمضاؤه مقراً في القلب، حتى حيل بين الأرواح والأبدان التي فيها مستقر وسكينة لها.

ونرى أن هذه الغربة عن الذات لا يستطيع الإنسان تحاشيها أو البعد عنها، وقد يصح أن نقول هنا إن الزمن بحركته إلى الأمام، هو الذي صنع هذه الغربة، ولا نقصد هنا الزمن بمفهومه المجرد، وإنما مجمل المتغيرات التي حدثت.[1]

ونقصد بالمتغيرات هنا المصيبة التي أنست ما تقدمها، وضياع الذوات وغربتها في ظل هذا المتغير.ونراه يذكر الطفل الذي حيل بينه وبين أمه، وهذا الفراق هو فراق عن الأمان والاستقرار والإحساس بالحب والرعاية، التي هي من الأمور المهمة لاتزان الذات البشرية، فجاء الاضطراب والخوف والغربة من هذا الفراق، والغربة الأكبر هي فراق الوطن.

وعند فراق الوطن يُفتقد إلى من يؤمن حاجات الذات الأساسية، فينمو بذلك الإحساس بالغربة في ذاته.وعند ذلك يفتقد الإحساس بالرضا والفخر فيفتقد المغزى الذاتي للإنسان فيغترب عن نفسه.[2]

وغربة الذات حاضرة عند سعدي كما كانت عند صاحبه الرندي، وكيف لا وكلاهما تجرع من السم نفسه، وذاق من الكأس عينها، وكلاهما وقف حائراً مشدوهاً أمام منظر يذهب العقل ويغطي القلب طبقة سوداء كلها كآبة وخيبة تجعل الذات تهيم متخبطة حائرة لا تقوى على الثبات ولا تتعرف حتى على نفسها.

نسيم صبا بغداد بعد خرابها تمنيت لو كانت تمر على قبري

لأنَّ هلاك النفسِ عند أولي النهى أحبُ إليهم من عَيش منقبض الصدرِ

.....

١- الخشروم، الغربة في الشعر الجاهلي، (مرجع سابق)، ص: ٢٤٢.

٢- أحمد محمود جواد مغنية، الغربة في شعر محمود درويش ١٩٧٢م –١٩٨٢ م، الفارابي ٢٠٠٤م، ص: ١٤.

مررتُ بصم الراسيات أجوُبها كخنساءَ من فرطِ البكاء على صخر

.....

لقد كان فكري قبلَ ذلكَ مائزاً فأحدث أمرٌ لا يحيط به فكري

وبين يدي صرف الزمان وحُكمه مغللة أيدي الكياسة والخُبر

.....

وحرقة قلبي هيجتني لنشرها كما فعلت نار المجامر بالعطر

سطرتُ ولولا غض عيني على البكا لرقرق دمعي حسرة فمحا سطري

أحدثُ أخباراً يضيق بها صدري وأحمل آصاراً ينوء بها ظهري

.....

وربُ الحجى لا يطمئن بعيشةٍ فلا خير في وصل يردف بالهجر[1]

غربة الذات واضحة عند سعدي في موته وفي حياته، فما أشد غربةً للذات من هذه الغربة، الموت وهو المجهول الذي احتارت العقول في ماهيته، والذي يمكن أن يباغتنا في أي وقت وأي مكان وأية ساعة، هي مشاعر غربة كانت مستحوذة على الشاعر، ونراه في موضع آخر يبين غربة الذات في حنينها إلى الماضي، وتغير الدهر عليها فذكر أطلالاً كانت، وأخذ يجوبها باكيا كما كانت الخنساء تبكي على أخيها صخر.

مررتُ بصم الراسيات أجوُبها كخنساءَ من فرطِ البكاء على صخر

فالحنين إلى الماضي محاولة للانعتاق من وطأة الحاضر، وهو غربة عن الواقع (الحاضر)، فحين يشعر المرء أن حياته قد قست عليه فإنه يجد متنفساً بالهروب منها إلى الماضي لكي لا يحس بثقل الحياة ومآسيها، وربما يتذكر اللحظات الحزينة ليعمق حزنه باللحظة التي يحياها، فيزيد حزنه حزناً، وذكر الأطلال وما يخلفها من شعور بالغربة، ورغبة في الانفصال عن الواقع، هو اتحاد بالماضي البعيد والحديث عن الديار له دلالة عميقة، يحاول به الشاعر أن يتحد بكل دقيقة من دقائق الماضي، وأن يتصل بكل شيء فيه، وأن كل دقيقة تذكره بقضية، وأن الدافع الأساسي هو دافع ذاتي، إذ ينفصل الإنسان عن لحظته وحياته الحاضرة ويتصل بالماضي بحثاً عن ملجأ له فيه، و الحديث عنها يؤكد

١- د. شيرازي، سعدي الشيرازي، أشعاره العربية (مرجع سابق) الصفحات من ٣١الى ٤١.

الغربة عن الذات.[1] وهذه الغربة فرضها عليه ما آل إليه الحال من تغير في ملامح البيئة والأحوال إلى أبشع صورة وأسوأ حال، فعباراته: قبري/منقبض الصدر/فرط البكاء/لا يحيط به فكري /حرقة قلبي/غض عيني على البكا/يضيق بها صدري/ينوء بها ظهري هذه تدل دلالة واضحة على غربةٍ داخلية استحوذت على كيانه ووجدانه.

وبين صرف الزمان وحُكمه مغللة أيدي الكياسة والخُبر

وشغل الدهر والزمان مساحة واسعة عند الشاعر، فحمل في طياته الكوارث والنكبات ووقف ضعيفاً منكسراً، مما يعزز إحساس الغربة لديه.

ونرى الحكمة ظاهرة عند الشاعر، ولكنه اختار من الحكمة ما يبين بها غربته الداخلية، وما فيها من تحطم وذل وحزن ومآسي.

لأنَّ هلاك النفسِ عند أولي النهى أحبُ إليهم من عَيش منقبض الصدرِ

.....

وربُ الحجى لا يطمئن بعيشةٍ فلا خير في وصل يردف بالهجر[2]

لابد لنا من الإشارة إلى أن أشعار سعدي غلب عليها استعمال الأساليب الإنشائية والخبرية، ليجذب من خلالها المتلقي ويدعوه إلى مشاركة وجدانية فيما يعبر عنه من أفكار وأحاسيس ومشاعر إنسانية ؛ ومشاطرة شعورية فيما يختلج في نفسه من آلام وأحزان تدمي قلبه وتعتصر روحه أو آمال وأماني تحمله إلى آفاق بعيدة رحبة ليحلق في سمائها الصافية ويرتوي من نبعها الفياض، وليثير انتباهه إلى ما يوحي له من دلالات إيمائية ورموز إيحائية، فضلاً عن معانيها اللغوية، ولاشك أن لهذه الأساليب الخبرية والإنشائية إشارات ومعان تضفي على شعر سعدي وكلامه رونقاً ورواء وترفده بزخم كبير من القوة والتأثير مما يدعو المتلقي إلى مشاطرة الشاعر أحاسيسه ومشاعره[3].

وبين يدي صرف الزمان وحُكمه مغللة أيدي الكياسة والخُبر

.....

وحرقة قلبي هيجتني لنشرها كما فعلت نار المجامر بالعطر

1- الخشروم، الغربة في الشعر الجاهلي، (مرجع سابق)، الصفحات من: ٢٤١إلى ٢٤٤.
2- سعدي الشيرازي، أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣١و ٤١.
3- د. أمل، لأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي،(مرجع سابق)،ص: ١٥٩.

سطرتُ ولولا غض عيني على البكا لرقرق دمعي حسرة فمحا سطري

أحدثُ أخباراً يضيق بها صدري وأحمل آصاراً ينوء بها ظهري[1]

1- د. شيرازي، سعدي الشيرازي - أشعاره العربية (مرجع سابق) الصفحات من ٣٧الى ٤١

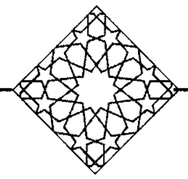

المبحث الثاني

المكان

أ: المكان الحلم

ب: المكان الوطن

ج: المكان الطلل

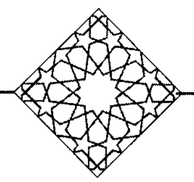

المكان:

للوطن في اللغة عدة معان أوردتها المعاجم العربية، فقد ورد في لسان العرب:» الوطن المنزل تقيم به، وهو موطنُ الإنسانِ ومحله..»[1]

ونلحظ أن اللغويين وأهل المعاجم لم يشترطوا في الوطن أن يكون مسقط الرأس وذلك لأن الإنسان العربي، الذي يولد في الصحاري، في شبه الجزيرة العربية ليس له مكان معين يعد مسقط رأسه، وطبيعة تنظيم حياة العرب الاجتماعية كانت تفرض عليهم هذا المفهوم، وعلى ذلك يذهب المعنى إلى كل مكان ينزله الإنسان ويسكن فيه، ويعده مستقراً ومقاماً؛ بل إن هذا المفهوم قد اتسع بصورة كبيرة بعد الإسلام، فعد كل مكان يقف فيه الإنسان وقفة زمنية موطناً، منه جاء (مواطن مكة) ومن ثم تشعبت اللفظة و اختلف مؤادها باختلاف المذاهب والاتجاهات السياسية لكنها تتصل أولا وأخيرا بالوطن وحب الوطن، والإخلاص له، باختلاف الطرائق التي تتبناها الأفكار والتيارات الإنسانية المختلفة، فقد دعا الإسلام إلى الإخاء والمحبة والسلام وإلى أن الأرض أرض الله، والناس عبيد الله، وأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وإلى أن الناس سواسية كأسنان المشط، مع ذلك فقد دعا الإسلام في مواضع كثيرة من القرآن الكريم إلى التمسك بالوطن، وبين قيمته وأهميته بالنسبة لساكنيه.[2]

فطر الله تعالى الإنسان على حب الخير، فحببه إلى كل نفس سوية، وجعل ثواب الصالحين الخير الجزيل ليسعدوا في الدنيا والآخرة، ومن جملة ثواب الآخرة السكن والاستقرار حيث دار البقاء، ومن ثواب الدنيا السكن والطمأنينة.[3]

ونرى هنا أن الثواب المثالي في الدارين هو السكن والاستقرار، لنصل إلى أن أهم ما يمكن أن يعطي الإحساس بالسعادة والأمان هو الوطن والاستقرار فيه.

١- ابن منظور - لسان العرب، مادة وطن.

٢- د. محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي،دار القلم للنشر والتوزيع ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، الصفحات ١٤و١٥و١٦.

٣- أ.د محمد جاسم حمادي المشهادني، حب الوطن في التراث والتاريخ،دار الشئون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٤م، ص: ١٥.

وللفلاسفة أقوال وردت في تضاعيف كتبهم وفي الكتب التي نقلت بعض آرائهم وفلسفاتهم تتحدث عن الوطن وحبه والصلة الوثيقة بين الوطن والمواطن، من ذلك ما جاء في كلام لسقراط، يداوى كل عليل بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تتطلع لهوائها وتنزع إلى غذائها، وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أنجع أدوائها، وقال جالينوس: يتروح العليل بنسيم أرضه كما تنبت الحبة ببل القطر، وقال بعض الفلاسفة: فطرة الرجل معجونة بحب الوطن. وللحكماء في حب الوطن أقوال مبثوثة في كتبهم من ذلك ما جاء في كتاب المنازل عن أحد الحكماء أنه سئل ما اللذة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان ومحادثة الإخوان، قيل: فما الذلة ؟ قال: النزوح عن الأوطان، والتنقل في البلدان، وقال آخر: إذا كان الطائر يحن إلى أوكاره، فالإنسان أحق بالحنين إلى أوطانه، وقال حكيم:عسرك في دارك خير من يسرك في غربتك، وقال حكيم آخر: الكريم يحن إلى جنابه كما يحن الأسد إلى غابه.[1]

هذه أقوال توضح موقف الدين والأدباء والفلاسفة والحكماء من الوطن أو المكان، وقد وردت إشارات في قصيدتي الشاعرين الرندي والشيرازي عن الوطن وكيفية انتقال الإحساس من حب وانتماء واستقرار إلى رغبة وحنين للرجوع إليه، والبكاء على أطلاله، وملامحه التي ذهبت مع الريح، فالمكان أو الوطن لدى الشاعرين أوقد الحنين إليه في ظل المتغيرات الأليمة التي طرأت عليه، وأفقدته مكانته ورونقه بل أذلته أمام أعين قاطنيها.

فجاء المكان في موضوعات ثلاثة: المكان الحلم والمكان الوطن والمكان الطلل.

الوطن الحلم أي الوطن الذي يحلم به الشاعر ويتمنى رجوعه إليه وعودته كما كان في عز وسلطان وأمان، والوطن الذي ضم تحت سمائه كل من أراد أن يحتمي بحماه وينهل من خيراته، وبذهابه يشعر بحرقة البكاء عليه وعلى ما تبقى منه من صور الحياة يتذكر الماضي الجميل أثناء الوقوف على أنقاضه مع حرقة وألم شديدين لما حل به من دمار وضياع.

أ- المكان الحلم:

نلاحظ أن المكان عند الشاعرين هو حلم ورغبة بأن ترجع الدار كما كانت، فالدار أو المكان، هو طموح في العودة إلى العز، وإلى الحياة، فقد تغيرت الأحوال، وساءت الظروف، وتبدلت الأوضاع إلى أسوأ ما يمكن، فهذه الدار لا تبقي على أحد والزمن أحواله غير مستقرة، ولا يمكن أن يدوم الحال أبد الدهر، لا في الرخاء ولا في الضراء.

قال الرندي:

وهذهِ الدارُ لا تبقي على أحد ولا يدوم على حالٍ لها شان[2]

١- أ.د محمد جاسم حمادي المشهداني، حب الوطن في التراث والتاريخ،دار الشئون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٤م، ص: ٢٣و٢٤.
٢- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٧٩.

وقال الشيرازي:

وهَب أن دارَ المُلك ترجعُ عامراً ويُغسل وجه العالمين من العَفرِ[1]

فليجأ الرندي إلى الحكمة التي بها يهون أو يحاول أن يروح عن نفسه ما ألم بها من مصاب، فبالرغم من العاطفة السائدة على أبيات القصيدة، وهي عاطفة الرثاء، إلا أن الأبيات السابقة توحي بشيء من الأمل، والحلم بعودة الديار المسلمة لأصحابها وبرجوع السكينة والطمأنينة للأمكنة التي تحمل الذكريات السعيدة معها ذكريات الطفولة والصبا، وربما لم يصرح أحد الشاعرين بذلك في الأبيات السابقة، إلا أنه لا يمكن تجاوز البيتين دون أن تمر علينا صورة الطفولة والصبا، والعمل والضحك والرخاء والأمان، فالشاعران بين أبيات الرثاء والبكاء تشعر خلال موضوعاتهما أن هناك حلماً بأن ترجع الأيام السابقة، وكان الأمل أن يرجع الزمان، وتعود عقارب الوقت إلى الوراء، ويغسل وجه العالمين من العفر وربما يكون الحلم بالعودة من المستحيل.

لكن هكذا هو الإنسان المبدع، ترى فيه شرارة الأمل وتمسكاً بالحلم الضائع ويواسي الشاعر نفسه – كما فعل الرندي – ليعبر عن مدى ألمه وبؤسه وإحساسه أنه خسر كل شيء، فيروضها على تقبل مصيرها، ويوطنها على قبول الأمر الواقع، ويبين أنه لا جدوى ولا فائدة من البكاء والنحيب مادامت الدنيا لا يدوم لها حال، وفي هذا المعنى استسلام حزين يوحي بانكسار النفس البشرية وضعفها أمام النازلات.[2]

وقد ثبت علميا أن المعاناة تولد الإبداع، لأن المبدع يعاني آلاما أكثر من الإنسان العادي، وحالات الغضب والقلق والحزن تعتبر من أشد حالات النفس إثارة للشعر وهي حالات تصيب النفس عندما تُظلم، أو يهددها أحد في نفسها، أو عرضها، أو عقيدتها،أو وطنها، فالمبدع هو الذي قد عانى بصدق خبرة الصراع الذي لا ينتهي داخله، ذلك الصراع الذي يظل أبدا متوهجا، فتلمع عيناه ناظرتين داخله في ذات الوقت الذي تلتقطان فيه معطيات الوجود من حولهما، وقد تقف البصيرة عند الحد الدقيق الفاصل بين العالمين فتراهما وتزاوج بينهما في الوقت نفسه.[3]

ونرى هذا التزاوج جليا لدى الشاعرين، هو تزاوج بين الواقع والحلم، بين ما هو واقع وما يرغب في وقوعه، إنه الصراع، والثورة على الواقع بما يلائم طريقته في التعبير، وهي الكلمة.

ولكن الأحلام لا تتنبأ بالمستقبل، بل تكشف عن صراعات وجدانية يعانيها الحالم في الوقت الحاضر، أو قد تعبر عن رغبات مكبوتة، فكأنه محاولة لاستبعاد ما يسبب اضطراب النفس، ووسيلة

١- د. شيرازي، سعدي الشيرازي - أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣٤.
٢- أحمد عقون، رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي القديم..(مرجع سابق)، ص: ٣٤٣.
٣- سعود عبدالعزيز السنعوسي، الموقف النفسي للأدب الكويتي في فترة الاحتلال والتحرير الشعر نموذجا، أطروحة ماجستير، بإشراف أ. د تركي أحمد المغيض – جامعة الكويت٢٠٠٨، ص: ٢٥و٢٦.

لإرضاء دوافعه، إرضاء وهميا خياليا يعفيه من الاستيقاظ وهي تنفيس عن أشياء مكبوتة،أو تعبير عن رغبة مشتهاة.[1]

فتلك الرغبة الملحة في نفس الشاعرين بعودة الوطن، واسترجاع العز والسلطان والإحساس بالأمن والاستقرار، والرغبة أو الحلم جاء تنفيساً عما هو مكبوت في النفس المنكسرة التي فقدت عزها ولبست ثوب الذل والمهان ؛ فكيف لا تحلم النفس وما بيدها حيلة سوى الحلم لتهرب من الواقع المرير وتبحث عن شيء يساعدها على تحمل ما لا يمكن تحمله، والصبر على ما لا تطيقه من مشاعر مدفونة، ولم تجد النفس مهرباً لها ولا ملجأً سوى الحلم.

ب-المكان الوطن:

يرتبط الإنسان ببيئته ارتباطاً وثيقاً، لأنه مكمل لبيئته وهي مكملة له، في نشأته وتطوره، ومن هنا كان للإقليم الذي يعيش فيه الإنسان وينشأ أثر كبير في أخلاقه،وتكوينه النفسي، واستعداده الفكري، وإبداعه العقلي، وهذه القابليات تختلف من إنسان لآخر، تبعاً لاختلاف الأقاليم، واختلاف الظروف الطبيعية والمناخية فيها ومن هنا كان أهل البادية أصفى ذهنا من سكان المدن، لصفاء جو البوادي عن أجواء المدن، وأهل البلاد الباردة، أسرع حركة ونشاطاً من أهل البلاد الحارة، وفي البلد الواحد يفضل أهل الجبال أهل السهول نشاطاً وصفاء ذهن، ولهذا كان تمسك الإنسان ببيئته، والتزامه لها، ورفضه البعد عنها، أو الرحيل عنها، لما له أثر على طبيعته النفسية، ونشأته الطبيعية، لأن في اختلاف الظروف تأثيراً واضحاً على الإنسان، لأن استمرار الإنسان في بيئته، منذ المولد والنشأة، بين أهله وعشيرته وتعوده على ظروف معينة، وعادات وتقاليد خاصة، يجد من الصعوبة، بمكان تغييرها، بالإضافة إلى العادات الاجتماعية التي نشأ عليها في بيئته. إن العوامل السابقة مجتمعة، كانت الحافز الأول والرئيس، في أن يقوم ذلك الترابط المحكم بين الإنسان وبيئته، وأن تكون صلته بها، وبما تحمله من عادات وتقاليد، أوثق وأشد رسوخاً في كيانه من أي شيء آخر.

فالإنسان محب لبيئته ووطنه، وهو متمسك بهذا الوطن، يحن إليه، ويدافع عنه، ويبذل في سبيله كل غال ورخيص، للذود عن حياضه.[2]

لذلك كان التعبير عن الوطن وحبه، والشوق له من أهم موضوعات الشاعرين، فهذا الحب هو الذي يلهب عواطف الشعراء، فتشيع العاطفة الجياشة وتتدفق بين أبيات القصيد، لتصل إلى القارئ بسهولة وسلاسة، فالعاطفة الصادقة تخرج من القلب لتصل وتؤثر في قلب المتذوق، وكيف لا تصل وهي من أرق وأصدق العواطف الإنسانية، ألا وهي عاطفة حب الوطن!

١- د. علي اسماعيل عبد الرحمن، فسيولوجيا النفس طريقك إلى الصحة النفسية، دار اليقين للنشر والتوزيع ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨، ط١، ص: ٢٢٠.
٢- د. محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي..(مرجع سابق)، ص ١٨و٣٠.

ونرى التعبير عن الوطن، إنما هو تعبير عن مشاعر الإنسان حيال الوطن والمكان الذي كان.

قال الرندي:

فاسأل بَلنسية ما شأن مُرسية ... وأين شاطبة أم أين جيانُ

وأين قرطبة دارُ العلوم، فكم ... من عالم قد سما فيها له شانُ

وأين حمص وما تحويه من نُزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

.....

وماشياً مرحا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تغر أوطانُ[1]

وقال الشيرازي:

وصان بلاد المسلمينَ صيانة ... بدولة سُلطان البلاد أبي بكر[2]

إن الإنسان إذا ما شعر بالحب أو الكره أو بالاستحسان أو الاشمئزاز، نحو أمر معين، إنما يكون هذا ناتجاً عن العاطفة الإنسانية التي تتحكم في المشاعر والأحاسيس ؛ والإنسان العربي ذو عاطفة قوية، نظراً لما عرف عنه من رقة الإحساس وسرعة الخاطر، وكان لا بد له من التعبير عن هذه العاطفة، والأمة العربية أمة شاعرة لأنها مرهفة الحس متدفقة العاطفة، يضاف إلى أن لغتها لغة شاعرة ؛ ومن هنا كان البيان من أبرز صفات هذه الأمة، وعلى ذلك فلم يكن للعربي إلا أن يصور عاطفته، ويعبر عنها شعراً، وذلك لأن الشعر انفعال نفسي ينفس به المرء عن نفسه، شأن البكاء ينفس به عن أحزانه، وشأن الضحك يعبر به عن فرحه وسروره، لأن الشعر لغة الوجدان، وقد جاء تصوير العرب لعواطفهم بأشعارهم، رائعاً جميلاً، وكان سجلاً حافلاً حفظته لنا أشعارهم، سجلٌ خالد لتراث العرب وأيامهم، كانت عاطفة العربي نحو وطنه، قوية طاغية وحبه لها عظيماً ودفاعه عنه دفاع المستميت، وشوقه إليه كبيراً في وقت البعاد والحنين.[3]

نرى العاطفة والفخر وحب الوطن واضحة وجلية في أبيات الشاعرين، والوطن المكان حاضرٌ فيها، وما وجد إلا لحب متمكن في نفسيهما للوطن الذي يغيران عليه كل الغيرة، ولمكانة الأرض في حناياهما.

١- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٨٠.
٢- د. شيرازي، سعدي الشيرازي - أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣٩.
٣- د. محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي..(مرجع سابق)، ص ٤١و٤٢.

نرى الرندي يذكر مدنا وما كان فيها من مظاهر الطبيعة الخلابة، ويبين ما كان فيها من علوم وعلماء، فنراه يستحضر الصورة المدفونة في ذاكرته، فلا يريد أن تحل محلها الصورة الباهتة الجديدة.إنه يتذكر بذاكرة حسية، وهي التي تسمح بتذكر طعم أو لون.[1]

يتذكر النهر وماؤه العذب، وحمصاً وطبيعتها الخلابة، ونلاحظ أنه بالرغم من تعدد الموضوعات في القصيدة إلا أنها كلها تدور حول محور الرثاء، والرثاء مرتبط بالحنين، ولهذا نلحظ الحنين إلى زمن النضارة والعيش الأخضر، والمياه العذبة وزمن الخلافة، وما هذا الحنين إلا بكاء العهد الماضي ؛ فالشوق هو العلة، وهو الشغل الشاغل للشاعرين، وهو المعاناة النفسية التي تجعلهم لا يضبطون مشاعرهم ولا ينسقونها، فمشاعرهم متداخلة، وهذا أمر طبيعي لمن مر بظروف صعبة، أدت إلى فقده الأحباب والأصحاب والأوطان.

إن الاحتفاظ بالتجارب الماضية له أثر كبير في الشعور، ولاسيما أن غالب تلك التجارب أمنيات لن تتحقق، أو مخاوف زلزلت كيان النفس، أو آمال لم تتحقق فانحدرت إلى أعماق النفس، وأصبح من المستحيل استدعاؤها إلا باستخدام وسائل كالذهول والاضطرابات العصبية، إذن هي النزعات الباطنية التي تلعب دوراً أساسياً في الحياة الشعورية، وتؤثر على حياة الإنسان.[2]

وتلك النزعات الداخلية جعلت الأمنيات تتدفق في الأبيات، وبها تسترجع النفس الذكريات، كالأماكن، والصور والرائحة، والسلطان والعز والجمال.

«وتكرار المدن واحدة تلو الأخرى، كان مما أضفى على الأبياتِ شيئاً من الجلال والتأكيدِ على اتساعِ المصيبة.»[3]

وكبر المصيبة مرتبط بجمال الوطن، وولوع المواطن ببلده، ولاسيما الأندلس التي ولع الشعراء بالتغني بجمالها، فبثوها مشاعرهم، ولم يذكرها الشاعر إلا وأنه كان مولعاً بها حاله كحال كل أهلها، وذكرها في المقام – وهو الرثاء – ليزيد من خول المصيبة، وليبن مكانة وطنه الكبيرة في نفسه ؛ بل يصور ذلك نيابة عن كل أهل الأندلس الذين يكنون لها كل إعجاب وافتتان.

وذكر بعض المدن العظيمة في قصيدته، ما هو إلا بيان تاريخي لمكانة تلك المدن وما كان فيها من مزايا تفوق غيرها من المدن الأخرى، كقرطبة التي كانت حاضرة المسلمين، وما عرف عنها من روائع المنشآت والعمائر، وما كان فيها من حركة حضارية في مجال الفنون والآداب، حيث عرف أن مستقر أعلام العلماء كان فيها وكذلك أعلام البلاد، وأعيان الناس ثم بلنسية، التي عرفت قاعدةً من

١- د. علي إسماعيل عبدالرحمن، فسيولوجيا النفس...(مرجع سابق)، ص: ١٣٢.
٢- السنعوسي، الموقف النفسي للأدب الكويتي...(مرجع سابق)، ص ١٨و١٩.
٣- أحمد عقون، رثاء المدن والممالك الزائلة...(مرجع سابق)، ص: ٣٠٢.

قواعد الأندلس ولما عرف عنها بطبيعتها الخلابة، حيث كانت مطمع الأعين والأنفس، وحفت بالأنهار والجنان، فلا ترى إلا مياها تتفرع ولا تسمع إلا أطياراً تسجع، ولا تستنشق فيها إلا أزهاراً تتفح.

لقد تغنى الشعراء الأندلسيون بموطنهم، وصاغوا من الألفاظ دراً في وصف رياضها، ومباهج جنانها، فهيَ أرضٌ كريمة جمعت من المحاسنِ ما هزَ المشاعر وشحذَ القرائحَ، وساعدَ على الإبداع، فرسموا لها أبدع الصور واستلهموا من حُسنها وبهائها أعذبَ الألحان.[1]

وكذلك نرى وفاء سعدي حاضراً في هذا الموقف، فإلى جانب العاطفة السائدة الموحدة بين الشاعرين، إلا أنه يذكر الخلافة، وكيف كانت مصونة تحت ظل الخلافة ؛ تلك الخلافة التي انتشر عدلها وعزها في الأقاليم المفتوحة، والتي جعلت كل الحضارات تذوب فيها وفي تعاليم الإسلام السمحة، فكان الوفاء لها، والإخلاص لها، والدفاع عنها، والبكاء عليها وطناً ضاع ما كان فيه من عز وسلطان، وهكذا كان المكان الوطن حاضراً في خضم الرثاء والبكاء والحنين، وتذكره كان لازماً للشاعرين، إما للهروب من الواقع، أو لتسلية النفس الحزينة، أو للتنفيس عن مشاعر مكبوتة كلها قهر وظلم، فكان الرجوع للعهود الماضيات هو المتنفس الوحيد والتصبر بالذكريات كان العلاج المؤقت لما تعانيه النفوس من قاهر الألم.

ويبين ذلك الارتباط بالوطن، وحب التمسك به، وإن كانت ذكرى، إلا أنها تكون ملازمة له على مر الزمان، ويؤثر هذا الارتباط في لغته والتعبير عن شعوره، بل في مشاعره قبل التعبير عنها وهي الحب والحنين الذي لا ينقطع، فالشاعر في ذكره للماضي وما كان فيه من مآثر ومفاخر، وإطالته الوقوف على الماضي ما هو إلا استنجاد به للحديث عن الحاضر.[2]

إن لجوء الشاعرين إلى الماضي فيه فخر بما كان فيه إلى جانب الإعجاب والولع وكذلك الحديث عنه في الحاضر فيه استرجاع الألم والحزن بصورة أكبر، وبأسىً أعمق.

ج- المكان الطلل:

الحب عاطفة كبيرة من عواطف النفس الإنسانية، ولعله أقوى هذه العواطف إطلاقاً وقد شعر بها الناس في جميع الأزمان شعوراً قوياً، ولا يضاهيها في ذلك عاطفة من العواطف الأخرى، والمرأة المحبوبة والإنسان المحبوب يصبح كل منهما كائناً ممتازاً، ويكتسب قيمة جديدة ليست للإنسان العادي، يسبغها عليه الحب مع كثير من الخيال، والأشياء التي يكون لها علاقة بهذا الإنسان المحبوب تكتسب هي أيضاً هذا الامتياز، وهذه القيمة الجديدة، بالقياس إلى الأشياء الأخرى، والدار التي قضى المحبوب شطراً من حياته فيها من أبرز هذه الأشياء وأقواها إثارة للحنين والذكريات فالحنين

١-د. عدنان صالح مصطفى، في الشعر الأندلسي، دار الثقافة – الدوحة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ص: ١٥و ٣٩و ٤١و ٨٩.
٢-د. الداية، أبو البقاء الرندي...(مرجع سابق)، ص ٧٦.

هو الأساس الذي يقوم عليه شعر الطلل.[1]

والحنين المتلازم مع الرثاء هو السمة الأساسية، والعاطفة الرئيسة في القصيدتين فبقايا الوطن وآثارها الخربة كانت تملك قوة معجزة في إثارة العاطفة الحزينة المتشبعة بالحنين والذكريات، والواقف على الأطلال لا يقف على الخراب والدمار وإنما بوقوفه يسترجع الوطن العظيم الذي لن يعود، والذي حل محله تلك الأطلال وكذلك يسترجع بذاكرته ما اتصل بالأرض من ذكريات وأحداث، مما يزيد في وقوفه الشعور بالاكتئاب والأسى والذكرى الأليمة، وموضوع الوطن الطلل كان حاضراً عند الشاعرين أكثر من الموضوعين السابقين – الحلم والوطن – وذلك لمشاعر الحزن والحنين التي طغت على الأبيات وعلى الموضوعات كلها، فكان الوطن الطلل فارضاً نفسه وبقوة، ليؤثر في السامع ويثبت، وجوده على مدى أبيات جميلة صاغها الشاعران بكل فن وإبداع وصدق.

نرى الرندي وسعدي يتطرقان إلى الوطن الطلل من خلال الأبيات التالية:

قال الرندي:

وصـــار مـا كـــان مـــن مُـــــلك كما حكى عن خيال الطيف وسْنانُ

.....

قـواعـد كـن أركـــان الـبـلاد فمـا عسـى البـقـاء إذا لم تبـق أركـــان

.....

عـلـى ديـــار مـن الإســـلام خـالـيـــة قـد أقـفـرت ولـهـا بـالـكـفـر عُـمـــران

.....

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فـيـهـن إلا نـواقـيـس وصُـلـبـــان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيـدان[2]

وقال الشيرازي:

نسيم صبا بغداد بعد خرابها تمنيت لو كانت تمر على قبري

.....

١-د. عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث،١٣٨٨هـ -١٩٦٨م ص: ٥و٦.

٢- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) الصفحات من ٢٧٩و ٢٨٠.

محـابـر تـبـكـي بـعـدهـم بـسـوادهـــا وبعض قلوب النـاس أحلـكُ من حِبرِ

.....

مـــررت بـصـم الـراسـيـات أجـوبـهـا كخنساء من فرط البكاء على صخرِ

.....

وقـفـت بـعـبـادان أرقـــب دِجـلـة كمثل دمٍ قـانٍ يسيل إلى البحـرِ

وفـائـض دمـعـي في مـصـيـبـة واسـطٍ يـزيـد عـلـى مـد الـبُـحـيرة والجـــزر

.....

بكت سمراتُ البيدِ والشيحُ والغضا لـكـثرةِ مـا نـاحـت أغـاربـهُ القـفـر[1]

.....

وقـفـت بـعـبـادان بـعـد صَـراتـهـا رأيـت خضيباً كالمنـىَ بـدم النـحـر[2]

تعبير الشاعرين واضح في البكاء على الوطن من خلال الأطلال وذكرها، والأطلال هنا ليست كأطلال الحبيب عند الشاعر الجاهلي، وإنما هي أطلال الوطن والناس والأهل والصحاب، وبقاياهم من دمار أو خراب أو ذكريات أو فناء.وهي كذلك أطلال دين وعقيدة كانت مبادئها وملامحها تندثر شيئاً فشيئاً بعد الدمار الذي حل بها وكان القهر والبكاء على طلل حضارة عظيمة تلاشت من الوجود أمام العيان، فلا سبيل لاستشعار المعاناة، وبيان مدى فداحتها سوى البكاء عليها، وذكر ما كان فيها ليصور تعلقه وحنينه إليها.

ولهذا كان تعبير الشاعرين واضحاً في هذا المجال «فالشاعرُ العظيمُ لا يعبُر عن نفسه من حيث هو فَرد جاءَ إلى الحياة وسيذهبُ يوماً ما، بل يعبُر عن حقيقةِ الإنسان كما يَراه، أيّ عن واقعِ الإنسان على نَفسِه..»[3]

ونلاحظ أن الشاعرين كان الألم الكبير الذي يعتصرهما إلى جانب دمار الوطن هو ملامح الدين التي كانت مرتبطة ومتأصلة في الوطن، وعز وسلطان الوطن منه، ومنبع الحضارة وقوتها

١- السمر:شجر صغير الورق قصير الشوك /والشيح: نبات أصفر الزهر طيب الرائحة/والغضا: شجر من الثل عظيم، خشبه أصلب الخشب.

٢- د. شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣١الى ٣٤. الصرة: بالكسر، أشد الصياح.

٣- انظر، عبد الفتاح أحمد يوسف، قصيدة الأطلال في شعر ذي الرمة، أطروحة ماجستير بإشراف أ.د. محمود الحنفي ذهني – جامعة الزقازيق، ص ٥١.

واستمراريتها من تعاليمه، فكان البكاء عليه مرتبطاً مع البكاء على الوطن، حيث إن ملامح الوطن كانت تعبر عنه، وطلل الوطن مرتبط بضعف العقيدة، فكلاهما صورة لعملة واحدة،فنلاحظ الإشارة إلى الوطن الطلل: ديار /قد أقفرت/بغداد بعد خرابها/صم الراسيات /دجلة/كمثل دم قان/مصيبة واسط/ عبادان بعد صراتها/بكت سمرات البيد والشح والغضا.

و ضعف العقيدة: قواعد كن/ديار من الإسلام قد أقفرت/المساجد صارت كنائس/محاريب تبكي/منابر ترثي/محابر تبكي.

فصورة المنابر والمحابر والمساجد والصم الراسيات و بكاء النباتات، كلها مرتبطة بالأرض التي وجدت عليها، فكان بكاؤها بكاء على الوطن.

والمتأمل للأبيات يرى بوضوح الحالة النفسية التي كان يمر بها الشاعران عند ذكر ما سبق، فالمشاعر التي يحس بها الإنسان عندما يرى الدمار وملامح الوطن التي تشوهت – وهي على كثرتها – تتصف دائماً بالحزن والكآبة، والسر في ذلك أن هذه الأحوال النفسية تنشأ عن الذكرى، ذكرى الأيام الماضية السعيدة التي قضاها بين أحبائه وفي وطنه.

وكأننا نرى الشاعر حين يقف بالديار، ويحيل نظراته أنحائها، ويرى بقاياها البالية المهجورة تغالب الفناء، وتظل قائمة، تثور في نفسه الذكرى، فيعود بخياله إلى الأيام السعيدة التي قضاها في هذه الربوع، فتثير الذكرى في نفسه الألم والحزن، ويبلغ به الحزن مبلغاً، فيبكي ويذرف الدموع.[1]

وكان الحزن عميقاً في أبيات الوطن الطلل، وكان التعبير عنه بالبكاء هو التعبير الأكبر: محاريب تبكي/منابر ترثي/محابر تبكي/فرط البكاء/فائض دمعي/بكت سمرات/ناحت أغاربه/صراتها. وهذا البكاء من الجمادات والإنسان ما هو إلا صرخة متمردة يائسة أمام حقيقة مرة مؤلمة، وما هو إلا تعبير عن يأس واستسلام للحال الحاضر.

ونرى بكاء الشاعر على الوطن الطلل منفرداً

مـــررت بصـم الـراسـيـات أجوبـهـا كخنساء من فرط البكاء على صخرِ

.....

وقـفـت بـعـبـادان أرقـــب دِلـة كمثل دمٍ قـانٍ يسيل إلى البحـرِ

وفـائـض دمـعـي في مـصـيـبـة واسـطٍ يـزيـد على مـد البُحيرة والجـــزر[2]

١- د. عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال...(مرجع سابق) ص: ٦٢.
٢- د. شيرازي، سعدي الشيرازي - أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣١و ٣٤.

نجده عندئذ يعيش مع نفسه أصدق اللحظات ومن ثم تكون الفرصة أمامه سانحة للتأمل والتفكر والتدبر، ولعل ذلك يرجع إلى أنه لم يجد بجواره من يخفف عنه لوعته فيكثر بكاؤه.[1]

ونراه يتنقل بين الجبال إلى دجلة ليراقبها ثم واسط ليزيد من بكائه عليها، وهذا الانتقال يعطيه الإحساس بالرفقة الآمنة التي تسعده في بلواه، فيأنس بها، ولو إلى حين، وفيه دلالة على شدة الحزن لدرجة أنه لا يطيق مغادرتها.[2]

وهذا التنقل بين أطلال الوطن، مواجهتها، من مكان إلى مكان، ما هو إلا قوة إلى جانب البكاء والتحسر، فهو يواجه خوفه، ويواجه الواقع، فمواجهة الإنسان لخوفه من علامات قوة النفس وثباتها، وفيه كذلك عدم السماح للنسيان و تناسي المصيبة بأن تعرف طريقاً في نفسه، فكلما ذهب ليزيد من جرحه وليبكي حرقة بين الطلل زاد تذكره واستمر لتفاصيل المحنة والألم، فهي قضية إنسان ستبقى جروحها ولن تبرأ طول الدهر.

هذا الوقوف على الطلل ما هو إلا سلوك معبر عن المشاعر، فالشعور ما هو إلا

«انطباعٌ يتولدُ عنْه ردُ فعلٍ نتيجة لتَعرضِه لموقفٍ مُعيَن».[3]

وما هي هنا إلا مشاعر سلبية تكونت لديه نتيجة الحزن والخوف واليأس والإحباط والاكتئاب والضيق والقلق والغضب،كلها مشاعر متداخلة كان التعبير عنها بالوقوف على الطلل والتنقل بينها مع البكاء عليها.

إن المكان الطلل يلعب دوراً بارزاً في القصيدتين، فهو ينمي مضمون الحرمان من الوطن، وقد دلت مؤشرات أسلوبية متكررة على هذا المحور، محور المكان: (قواعد أركان، البلاد، ديار، مساجد، محاريب، منابر) ولكن محور المكان كان مرتبطاً بالطلل وبقايا ذلك المكان، حيث إنها مرتبطة بالزمن الماضي الذي كانت فيه الأمكنة في عزها وسلطانها، عندما كانت محافظة على مكانتها وشموخها، فجاءت الأفعال الماضية: (صار، حكى، كن، أقفر، صار، مر، وقف، ناح، بكى..) وهي تدل على القضاء، وانتهاء الأمر، والحتمية الزمنية، فهي كانت ولكن انتهى أمرها الآن، ولم يعد لها وجود سوى أطلالٌ تدل عليها.

وفي المقابل جاءت الأفعال المضارعة لتدل على استمرارية البكاء والحزن، والحالة الشعورية المكتئبة لما حل لتلك الأمكنة: (تبكي، ترثي).

١- عبدالفتاح أحمد، قصيدة الأطلال في شعر ذي الرمة، أطروحة ماجستير بإشراف أ.د. محمود الحنفي ذهني – جامعة الزقازيق، ص:٥٣.
٢- د. عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال..(مرجع سابق) ص ٦٩.
٣-انظر، د. علي إسماعيل عبدالرحمن، فسيولوجيا النفس...(مرجع سابق) ص: ١٤٣.

فالدموع تسعف في تخفيف المعاناة واللوعة، فكلما انهمرت غزيرة كان الإحساس براحة نفسية، وقد كان البكاء من علامات الوفاء التي كان يُفتخر بها.[1]

إن تحول المكان وتغيره كان حاضراً لدى الشاعرين، فلم يكتفيا بذكر الطلل وما تبقى من الوطن، بل كان ذكر التحول أشد تأثيرا وأوضح صورة في بيان الألم وتصوير البعد المكاني، وتوضيح لوحة الدمار الشامل، فكان التحول مراً، والمكان فقد رمزيته وقدسيته ومكانته، وأصبح في غير ما كان له، واستخدمت في غير وظيفتها التي جعلت له.

قواعد كن ..... > لم تبق أركان

ديـــار .....> خالية – أقفرت

مساجد .....> كنائس

دجلـة .....> دم قان يسيل إلى البحر

عبادان .....> خضيباً بدم

فتحول المكان انعكس على مظاهر الوجود عامة، وأظهر مدى العبث الإنساني فيها، وبين مدى التوتر الناجم عن ذلك العبث، والتعرض لقدسية الأماكن، التي زادت من حرقة البكاء، وهيجت النفس في إخراج ألفاظٍ تحمل الحزن العميق والأسى والبكاء.

وهكذا فانبعاث الذكرى، ثم ثورة الحزن والألم في النفس ثانياً، وهياج الشوق ثالثاً والذهول عن النفس رابعاً، والبكاء وذرف الدموع خامساً، ثم التعزي سادساً، هي من أهم الحالات النفسية التي تعتري الشعراء حين وقوفهم على الطلل.[2]

وهذه الحالات النفسية ما هي إلا دليل على ارتباط الإنسان بأرضه ووطنه، فبكاؤه وتحسره، تذكره الدائم لما كان في أرضه، وحتى ذكر الجمادات التي كانت، تعبير واضح، وصدق نقي، يبين صدق عاطفته تجاه أرضه.

إن ارتباطه بوطنه، وحبه له، وتمسكه به، ظاهرة إنسانية، ملازمة له في مختلف الزمان، وعلى مر العصور، وفي كل البيئات والأوطان، وذلك للأسباب القوية الدافعة، التي تصل الإنسان بوطنه، فكان لها الأثر الكبير في تفكيره، فكان الارتباط ارتباطاً لا ينفصم، والحنين لها حنيناً لا ينقطع، فهو مؤرق حزين مكبل الحرية.[3]

١- د. الحور، الحنين إلى الوطن...(مرجع سابق)، ص ٢٢٥.
٢- د. عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال..(مرجع سابق) ص:٦٣.
٣- د. الحور، الحنين إلى الوطن..(مرجع سابق)، ص: ٤٣و٤٦.

وهذه الانفعالات والمشاعر المتداخلة، جعلت الشاعرين، يلجآن إلى بيانها وإيصالها للمتلقي من خلال موضوعات جمعتهم، وكانت نقاط تشابه بينهما، لتشابه الحدث والمصير، فكان المكان الحلم والوطن والطلل، من خلال الأبيات دليلاً واضحاً على الحالة الشعورية الحزينة التي كانت مسيطرة على الجو العام، فنجحا في كسب تعاطف المتلقي ؛ بل كانت فرشاة اللوحة في يده ليرسم المعاناة، واللوحة الكئيبة حسب تأثره، وتلقيه الموضوع، فكان الحنين أيضاً طاغياً في كل أجزاء اللوحة وتفاصيلها مع لمحة وبارقة أمل لا تكاد ترى في زواياها، هي أمل برجوعٍ للحرية والعز.

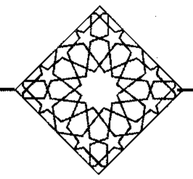

المبحث الثالث

الإنسان

أ: الإنسان الباني

ب: الإنسان الهادم

ج: الإنسان الضائع

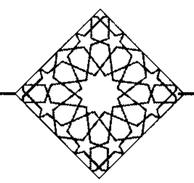

الإنسان:

الإنسان أصله إنْسيان، لأن العرب قاطبة قالوا في تصغيره: أُنَيسيان، فحذفت الياء استخفافاً لكثرة ما يجري على ألسنة الناس.[1]

وما الإنسان في حقيقته إلا كما نصت الآية القرآنية الكريمة: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ[2]»، لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه وحمله الأمانة، وفضله على أقوم مخلوقاته ألا وهي الملائكة، وجعله في نهاية المطاف خليفة له في أرضه، فالإنسان، وله الحق في أن يفخر في ذلك على سائر مخلوقات الخالق، هو الخليفة لصانع الوجود ولا خليفة غيره، من هنا جاءت الكرامة الإنسانية وكبرياء الإنسان على سائر المخلوقات التي في أصل الوجود إنما سخرت لأجله لا لأجل نفسها، إنه حامل لنفخة الخالق وشيئاً من روحه الذي فضله لحكمة أرادها جل شأنه، على مخلوقاته المطيعة السائرة على الناموس غير الخارقة لقانون الوجود، لقد فضله الخالق جل شانه على إبليس المفطور من النار وعلى الملائكة رمز النور رغم أنه من طين وفي اللاحق من ماء مهين، ومن هنا جاءت الحكمة التي أرادها هدفاً وغايةً هي ناموس الوجود وقانون التاريخ، ولكن ولنفس الإرادة الربانية السامية، طرد الإنسان من الفردوس، طرد الخالق جل وعلا أعز مخلوقاته إلى نفسه، المخلوق الذي فضله على كل خلقه وجعلهم إما ساجدين له (الملائكة) أو مسخرين لأجله (بقية المخلوقات)، طرد من الفردوس لأنه عصاه وكل ذلك مرسوم في مخطط رب الكون لهذا الكون ضمن إرادته وفي إرادته، ومنذ الحين تحول الإنسان إلى كائن يعاني لأنه أصبح كائناً يصنع ويخلق بإرادة الخالق الكلي ذاته سبحانه وتعالى، إذن، فالمعاناة في أحد أجزائها تعني الإبداع.

ولهذا فقد ابتدأت التراجيديا الإنسانية منذ طرد آدم عليه السلام من الجنة، وكان لهذه التراجيديا هدف وغاية ألا وهي الخلافة في الأرض، إذ إن كل شيء من طاعة وعصيان كان في كتاب الله المحفوظ وكان في محيط إرادته الشامل المحيط بكل شيء.[3]

١- ابن منظور، لسان العرب، باب الألف، مادة: أنس.

٢- سورة الإسراء، الآية (٧٠).

٣- د. تركي الحمد، عن الإنسان أتحدث تأملات في الفعل الحضاري، دار المنتخب العربي، بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م،ط١ ص: ١٦و١٧و١٨.

والإنسان حين لا يقوم بأداء دوره الاستخلافي في عمارة الكون فإنه يتحول إلى كائن لا يتقن أي عمل ويصبح عالة على شبكة العلاقات الاجتماعية، فالعمل والعبادة هما الهدف الأول والأخير لوجود الإنسان على هذه الأرض ؛ لأنه وبالعمل الصالح يتحقق مبدأ الاستخلاف الإلهي،ومن الوضع المعكوس أي أن من لا يعمل هو السيد ومن يعمل هو التابع، تتبع معاناة جديدة في الحياة الإنسانية ولكن شتان بينهما وبين المعاناة الأولى، فالمعاناة الأولى جعلت من الإنسان كائناً مبدعاً يعمر الأرض وفق مخطط إلهي مرسوم بدقة وحكمة، أما المعاناة الثانية فإنها معاناة مصطنعة تحاول أن تجعل من الإنسان شيئاً أقل من المكانة التي وضعه فيها ذات الخالق، المعاناة الأولى ذات نتيجة واحدة هي الإعمار والإنشاء أما المعاناة الثانية فإنها الخمود والسكون وهي في ذلك تخالف في نتيجتها النهائية نتيجة لمعاناته الأولى، والمقصود بالخمود والسكون هنا هو خمود وسكون الذات في حالة من الركود المميت وإن كان ما حول الذات متحركاً، الفضيلة والحق والخير والجمال والحرية والوطنية، إلى غير ذلك من قيم كلها عبارة عن أمور مطلقة يحاول الإنسان أو تحاول الذات الحرة الفاعلة أن تحققها فكلما كان التزام المجتمع بقيم معينة أكبر، كانت الروح الحضارية في ذلك المجتمع أرقى وأسمى، والقيم احترام دائم للذات وارتقاء بها عن السفاسف وإبعاد لها عما يقيدها.[1]

والبعد عن هذه القيم كانت له عواقب وخيمة في تاريخ البشرية، وفي تاريخ الإنسانية،فكانت معاناة الإنسان لأخيه الإنسان، وحمل الإنسان نفسه معاناة جديدة، وانقلبت الأوضاع إلى الأسوأ في سبيل أهواء شخصية، أو عدم إحساس وتجاهل بمعاناة الغير، فكانت الفتن والحروب والتشرد والضياع، والألم والفراق، وفقد الشعور بالحرية.

إن الإنسان الحر هو إنسان ليس عبداً أو سجيناً، وإن تخلي المرء عن حريته يعني تخليه عن طبيعته كإنسان، وعن حقوق الإنسانية جمعاء، بل هن واجباته، وإن التخلي عنها غير ملائم مع طبيعة الإنسان، ويعني نزع كل صفة أخلاقية عن أفعاله وكل حرية عن إرادته[2]. والحرية الأولى للإنسان عندما انتصر على كل أنواع الوثنية، إذ إن قيم الإسلام نفت أو تجاوزت ذلك الواقع وحققت واقعاً جديداً، وبذلك تحولت القيمة إلى واقع بعد أن كانت مجرد قيمة أو فكرة.[3] ولما تعرض الإنسان لنكبات وحروب جعلته يفقد حريته وهو على أرضه، وانعدم لديه الشعور بالإرادة التي هي من أساسيات الحرية، أخذ يعبر عن ما يختلج في داخله من اضطراب، فالتعبير مختلف من شخص لآخر، وكذلك الشاعران اللذان عبرا عن الإنسان في قصيدتيهما، فالتعبير عندهما كان مختلفاً بالرغم من تشابه الموضوعات التي كان سببها تشابه السبب والغرض، فجاء الإنسان عندهما بانياً وهادماً وضائعاً.

١-د. تركي الحمد، عن الإنسان أتحدث تأملات في الفعل الحضاري، دار المنتخب العربي، بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ص: ١٨.
٢- محمد الهلالي وعزيز لزرق، الحرية، دار توبقال للنشر، المغرب، ص: ٩و ٧٤.
٣- د. تركي الحمد، عن الإنسان...(مرجع سابق) ص: ٤٢و٤٤.

بانياً لحضارة عريقة، مساهماً في خدمة مجتمع على أسس راسخة، وهادماً لكل ما كان من البناء والتشييد، فلم يحافظ على إرثه، ولم يستطع مقاومة أهوائه، فكانت النتيجة إنساناً ضائعا، فقد كل حقوقه الإنسانية، كانتماء لوطن، وإحساسه بأمان الأسرة.

وسنبين الصور الثلاث للإنسان من خلال القصيدتين.

أ - الإنسان الباني:

بين الرندي صور هذا الإنسان فقال:

يا راكبين عِتاق الخيل ضامرة ... كأنها في مجال السبقِ عُقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر في دعةٍ ... لهم بأوطانهم عز وسلطان[1]

إنه وصف لقوة المسلمين وراء البحر، وهو كذلك وصف للإنسان الباني، الذي كان يستمد قوته من قوة وطنه، ومن انتمائه له، فلم يكن الوصف هنا رصد الملامح الخارجية ؛ بل هو تقديم للشخصيات، وكشف عن أبعادها الجسمية والاجتماعية والنفسية، ونفذ إلى العالم الداخلي لها[2]، وبيان ما كان فيه من القوة الجسمانية،والثقة الكبيرة بمبادئه، والعمل على تحقيقها، وإلى جانب ذلك العز والسلطان في الوطن، إنه تصوير رائع للرجل العربي المسلم الذي كان يتمتع بقوة جسمانية كبيرة وثقة عالية، وصاحب عز ومكانة بين الناس، إنها صورة رائعة للإنسان الباني.وهو تعبير عن الذات وعن تجربتها في حياة الفتوح، فهي تجربة تمتاز بالواقعية والصدق النفسي، يوضح فيها من المظهر الجمالي كي يصل بنا إلى دلالته النفسية من العز والفخر والسلطان الذي كان في ظل الدولة الإسلامية، وظهور هذه الروح البانية ليست بغريبة ولا مستهجنة عند الإنسان الأندلسي، فينبغي أن نضع في حسابنا طبيعة العصور الوسطى في المغرب والمشرق على السواء، التي تميزت بفورة العاطفة الدينية، فقد كانت الكنيسة تهيمن على مقدرات الأمم والشعوب النصرانية، كما كانت لها اليد الطولى في تسيير دفة الحياة السياسية، وفي الزاوية المقابلة يقف الإسلام المهيمن أيضاً على كل شئون الحياة السياسية والاجتماعية، ومعنى ذلك أن الروح الدينية التي انعكست على الإنسان كان لها مكان الصدارة من الصراع الطويل ويضاف إلى ذلك ارتباط الروح الدينية بالروح الوطنية، والنزعة العرقية والقومية.[3]

١- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٨٠.
٢- هيفاء الفريج، تقنيات الوصف في القصة القصيرة السعودية، النادي الأدبي بالرياض- المركز الثقافي العربي ٢٠٠٩م، ط١، ص ٣٧.
٣- موسى رزق ريحان، شعر الجهاد والحرب في الأندلس من الفتح حتى نهاية دولة المرابطين، أطروحة دكتوراه، بإشراف: أ.د محمد علي مكي - جامعة الكويت ١٩٧٥ م، الصفحات ٤٦٢و٤٧٨و٤٨٤.

ونلاحظ التشبيهات في الأبيات السابقة، التي كان الغرض منها هو الإعلاء من قدر المشبه[1]. فالتشبيه أسلوب من أساليب الوصف يتسم بالحسية والوضوح، الذي يدخل فيه الجانب العاطفي والوجداني[2] والذي جاء مؤكداً الفخر بالإنسان الذي عمل وبنى تلك الدولة، وحافظ على قيمها، والذي أيضاً كان له دورٌ بارزٌ في الذود عنها، فهو تقدير لذلك الإنسان.

وكانت صورة الإنسان كذلك حاضرة عند الشيرازي إذ قال:

فأين بنو العباس مفتخر الورى ذوو الخلق المرضي والغُرر الزهر ؟

.....

أيذكر في أعلى المنابر خطبة ومستعصم بالله لم يك في الذكر ؟

.....

وصان بلاد المسلمين صيانة بدولة سلطان البلاد أبي بكر

مليكٌ غدا في كل بلدة اسمه عزيزاً محبوباً كيوسف في مصر

لقد سعد الدنيا به دام سعده وأيده المولى بأولوية النصر

كذلك تنشا لينة هو عرقها وحُسن نبات الأرض من كرم البذر

.....

بشكر الرعايا صين من كل فتنة وذلك أن اللب يحفظ بالقشر

يبالغ في الإنفاق والعدل والتقى مبالغة السعدي في نكت الشعر[3]

الإنسان الباني عند الشيرازي متمثل بصورة أكبر من الناحية الدينية، ومن روح التعاليم الإسلامية، فمقياس الفخر بالإنسان الباني لديه هي مدى تمسكه بالتعاليم الإسلامية، فنرى بنو العباس اقترن الفخر بهم بخلقهم المرضي، والفخر بالوالي أبي بكر بأنه كان مثالاً للعدل والكرم، فالعزة والسلطان كانت بمدى التمسك والالتزام بتعاليم الدين التي هي أساس كل عز وحضارة، وبالتمسك بها يكون الإنسان أهلاً للمدح والفخر.

١- أ.د. صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن ٢٠٠٩م، ط٢، ص: ١٢٩.
٢- هيفاء الفريج، تقنيات الوصف..(مرجع سابق)، ص:٢٧٠.
٣- د. شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية (مرجع سابق) ص من ٣١الى ٣٩.

قد يعود هذا الاتجاه عند الشيرازي لثقافته الدينية، ونشأته الإسلامية القوية، وتتلمذه على أيدي كبار علماء بغداد في المستنصرية، مما أثر الأثر البالغ في أفكاره و جعل ذلك يظهر جلياً من خلال تعبيراته وصوره الشعرية التي كانت المؤكدة والموضحة عن ملامح الإنسان الباني عنده، وهي صور رائعة راقيه بمعانيها ومضمونها الديني تجعلنا نحترم ونقدر الإنسان الباني لديه ؛ حيث إنه موثوق به بما فيه من تمسك للمعاني الراقية للدين الإسلامي والتي جعلته يزرع محبته في قلوب الناس بلا استئذان.

فكان توظيفه لثقافته الإسلامية في قصيدته توظيفاً نابعاً من إدراكه وإحساسه الواقعي بفحواها ومحتواها، فاستخدمها بما يتواءم وموضوعاته، فخرج بروح أدبية إسلامية شفافة خالصة، فقد تشرب سعدي تعاليم دينه الحنيف وشريعته السمحاء وحفظها عن ظهر قلب وتفهم مغزاها الحقيقي، ووعى تراثه، وعندما أمسك بالقلم ليكتب، واستعد ليفرغ ما يجول في مخيلته، ويصور ما يختلج في قلبه وصدره، لم يشحذ الذاكرة لتصب مخزوناتها، بل انسابت الكلمات وتسلسلت الصور المعبرة المفعمة بالعبر وهي تحكي عن نفس كبيرة وثقافة عالية.[1]

ويمكننا اعتبار سعدي نفسه من النماذج التي ولدت من الحضارة الإسلامية، والتي كان لها دور الباني من حيث الأخلاق والأدب الراقي، فكان الإنسان قبل السقوط هو إنسان مفعم بالإبداع في كل مناحي الحياة، بغض النظر عن النماذج التي حادت عن دربها القويم، وهو أمر طبيعي للنفس البشرية، ولكن عظمة الحضارة الإسلامية جعلت الأغلبية العظمى – وإن كانت من حضارات أخرى غير عربية – تذوب فيها وتتشرب مبادئها العظيمة، وامتزجت تلك المبادئ بالشخصية العامة للإنسان، فأصبح رافدها الأول والكبير هي تعاليم الدين الحنيف، وأصبح معيار التفاضل هو المبادئ الإسلامية.

ب- الإنسان الهادم:

يحاول الإنسان أن يحقق قيماً مثل الحق والخير والحرية والوطنية، فهي الطريق في عملية صنع الحضارة ومحاولة الإنسان في السمو في سبيل وضع جدير به ولهذا فإن أفضل سبيل لفحص ثبات حضارة معينة هو معرفة مدى التزام الأفراد كوحدات والمجتمع ككل منظم من قبل الأفراد بقيم معينة، فكلما كان التزام المجتمع ومكوناته بقيم معينة أكبر، كانت الروح الحضارية في ذلك المجتمع أسمى وأرقى، فالقيمة قبل كل شيء هي علاقة تقوم بين الذات الإنسانية وبين الواقع وما به من موضوعات وأحداث، وإن القيم انتصار للإنسان وحرية له من عبودية أمور هو صانعها وواضعها.[2]

وعندما يحيد الإنسان عن قيمه، ويبتعد عن مبادئه، ويصبح عبداً لأهوائه سيعبر ويتصرف على غير ما جبلت عليه نفسه، فستكون النتيجة ولادة إنسانٍ هادم لكل ما بناه غيره، وغير مبالٍ لمصير

١- د. أمل، الأثر العربي..(مرجع سابق)، ص: ٢٠٣.
٢- د. تركي الحمد، عن الإنسان..(مرجع سابق)، ص: ٣٧و٤٢.

أخيه الإنسان، ومن هذا النمط من الإنسان وبمساعدته تسقط الحضارة الإنسانية، وتتبدل الأحوال إلى ما لا تحمد عقباها وتضيع الآمال وتزيد الصيحات في الآفاق، وهذا ما حدث للمدينتين العظيمتين اللتين ضاعت كل مظاهر الحضارة فيهما بضياع قيم بعض من كانوا فيها، وظُلم الإنسان فيها، وكان الثمن غالياً.

والقصيدتان بينتا الإنسان الهادم، الذي لم يملك القوة والشجاعة في التحكم بأهوائه وأطماعه.

فيقول الرندي موضحا ذلك:

فجائِعُ الدهرِ أنواعٌ منوعةٌ ... وللزمان مسراتٌ وأحزانُ

.....

يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ ... إن كنت في سِنةٍ فالدهرُ يقظانُ

.....

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وأنتم يا عبادَ اللهِ إخوانُ

ألا نفوسٌ أبياتٌ لها همَمٌ ... أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ

.....

لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ ... إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ[1]

ويبين الشيرازي نفس الموضوع من خلال الأبيات:

لحى اللهُ من يسدَى إليه بنعمة ... وعند هُجوم الناس يألفُ بالغدر

.....

وراءَك يا مغرورُ خنجر فاتكٍ ... وأنت مطأطأٌ لا تفيقُ ولا تدري

.....

يا فاعلَ الذنبِ هل ترضى لنفسكَ في ... قيدِ الأساري وإخوانٌ على سُررِ[2]

١- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٨٠و٢٨١.

٢- سعدي الشيرازي أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣١و٣٨و٤١

نلاحظ الإنسان الهادم عند الرندي الذي وصفه بصفات يحمله فيها مسؤوليةً في سقوط الأندلس: جائع الدهر، غافلا، التقاطع في الإسلام، وكذلك في استنكاره ألا نفوس أبيات، وفي تشكيكه، إن كان في القلب إسلام وإيمان، فالمسلم يتحمل مسؤولية أخيه، وإن لم يكن معه في أرضه، ولكن الذي يجمعهم دين واحد وآمال وآلام مشتركة، ومصير واحد، فوجب – من وجهة نظر الشاعر – أن يغيثوا إخوانهم في الأندلس، وهذا ما يوجبه عليهم دينهم ومبادئه، فهي مسئولية مشتركة بين كل المسلمين من مشارق البلاد المسلمة إلى مغاربها، فالدين وطنية وهوية تلزم من يعتنقها أن يؤازر أخيه، ولا يدير ظهره له.

فنجد السخرية والتقريع تتجليان في المفارقة بين المبالغة في وصف قوة المسلمين في وراء البحر – في موضوع الإنسان الباني - وبين تخاذلهم عن نصرة الأندلس وتجاهلهم لما أصابها، ولكنهم فقدوا الإحساس فلم تهتز مشاعرهم لما أصاب أهلها من قتل وأسر وما أصاب مدنها من ضياع.[1]

ويخلص من هذه الموعظة الساخرة المرة إلى إرشاد المسلمين إلى ما ينبغي عمله.

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ... وانتم يا عبادَ اللهِ إخوانُ

ألا نفوسٌ أبياتٌ لها همَمٌ ... أما على الخيرِ أنصارٌ وأعوانُ[2]

ويتمثل الحل عنده بالتعاون ونصرة المسلمين ووضع حد للتقاطع بينهم واستنهاض الإباء في نفوسهم، ويعزز في البيت.

لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمدٍ ... إن كان في القلبِ إسلامٌ وإيمانُ[3]

دعوته إلى التعاون ونصرة المسلمين باستثارة العاطفة الدينية لديهم، والعاطفة الإنسانية، وإثارة الحمية، وهي تعليق مر، وكأنه يقول إنه لا يمكن أن يجتمع ضياع المسلمين وسقوطهم، مع وجود الإسلام والإيمان، ونراه ترك صدىً بعيداً من خلال البيت في العقول والوجدان من خلال التشكيك بوجود الإسلام والإيمان.[4]

ونلاحظ أن الرندي شاعرٌ من الأندلس لم يجنح إلى تبرير الهزيمة، ولم ير أنها من صنع القدر الذي لامحيص عنه ولا مهرب منه، كما أنه لم يبخس الأعداء قدرهم فلم يصور نصرهم على أنه جاء مصادفة أو دون تضحية أو تدبير محكم، ومع ذلك لم يبالغ في تهويل قوة الأعداء وقدرتهم، فلم يحاول أن يصورهم قوة لا تقهر أبداً والحقيقة أن الشاعر الأندلسي كان عنيفاً مع أهله أشد من عنفه

١- أ. د. صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن ٢٠٠٩م، ط٢، ص: ١٢٢.

٢- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٨١.

٣- د. شيرازي، المرجع السابق ص ٢٨١.

٤- أ. د. صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الأردن ٢٠٠٩م، ط٢،، ص ١٢٢و ١٢٣.

مع الأعداء، ولم يكن غرضه التشفي والانتقام وإنما هي طبيعة الشعب الأندلسي مع نفسه في كل شيء البحث في جد وصلابة عن الحقيقة، والاعتراف بالواقع مهما كان مؤلماً أو مراً لمعرفة الأسباب التي تؤدي بالضرورة إلى مثل تلك النتائج.[1]

ولهذا كان التركيز عنده على بيان الأسباب ونمط الإنسان الذي أدت أفعاله إلى هذه النتيجة المؤلمة، وفي نفس الوقت نراه يبين الحلول التي تتمركز في العودة إلى مبادئ الدين والتعاون، التي بالتمسك بها تحفظ الإنسان والحضارة من أي سقوط، وبها أيضاً نستطيع تدارك الخيبة، وتخفيف وطأتها بالتعاون ونصرة المسلمين.

يقول الشيرازي:

لحى اللهُ من يسدَى إليه بنعمة وعند هُجوم الناس يألفُ بالغدر

.....

وراءَك يا مغرورُ خنجر فاتكٍ وأنت مطأط لا تفيقُ ولا تدري

.....

يا فاعلَ الذنبِ هل ترضى لنفسكَ في قيدِ الأساري وإخوانٌ على سُررِ[2]

يصف الإنسان هنا بالغدر والغرور (مطأط، لا تفيق، لا تدري، فاعل الذنب) إنها صفات هدامة، تهدم صاحبها وغيرها، فالإنسان يعيش في مجتمع يرتبط الواحد فيه بالآخر، وتؤثر صفاته في غيره سلباً أو إيجاباً، والصفات التي ذكرت هنا هي قطعاً صفات سلبية، ولكن سلبيتها هنا فاقت كل التوقعات، فهي أدت إلى الضياع واجتراع الويلات، وجعلت الإنسان ينظر إلى أخيه يتألم ولا يحرك ساكناً، جعلت القلب حجراً لا يحس ولا يتأثر، جعلته أنانياً لا يفكر في أخيه.

فنرى «النداء الذي من خصائصه في الأصْلِ أنهُ يُفرغُ ما في النفسِ من شحنات عاطفية تتَبدى تارةً في الألم والحَسْرة..»[3] فهو يتألم من هذا الإنسان الذي فقد معنى إنسانيته، فيراه مذنباً في راحته، واتكاءه في حين يعاني إخوانه الأسر والذل،ولكن في واقع الأمر هو الذليل المطأطئ الذي لا يرفع رأسه للحقيقة والواقع الهارب من مسؤولياته، فهو عالة في المجتمع، غير واضح المعالم، فمن ارتبط وارتضى بأن يكون جزءاً و فرداً من مجتمع لابد له من احترام قوانينه، ومن التأثر والمشاركة في قضاياه، فما بالنا بمن ارتبط بعقيدة تلزمه الوفاء والصدق وإغاثة الملهوف !

١- موسى رزق ريحان، شعر الجهاد والحرب..(مرجع سابق) ص ٤٥١.
٢- د. شيرازي، سعدي الشيرازي – أشعاره العربية، الصفحات ٣١و٣٨و٤١.
٣- أحمد عقون، رثاء المدن والممالك الزائلة...(مرجع سابق) ص ٣٢٢.

ج- الإنسان الضائع:

إن الإنسان - على مر العصور- كان سبب ضياعه الوحيد هو الإنسان الآخر فالآخر هو سبب تعاسته، وتشرده وضياعه، فلا الحيوانات المتوحشة ولا المكروبات ترعب الإنسان، إذ لا شيء أكثر إرعاباً له بالفعل، من نوع ذكي لاحم، قاس، يكون باستطاعته فهم وإفساد العقل الإنساني، ويهدف بالتحديد إلى تدمير الإنسان، هذا النوع هو بطبيعة الحال نوعنا أي إنسان آخر.[1] وكان هذا الإنسان حاضرا في قصيدتي الشاعرين، فقد كان هو السبب الأول في ضياعه بضياع وطنه وفقد الإحساس بالأمن والأمان والحرية، فسقوط الدولتين كانت السبب في ضياع حضارتين عظيمتين من حضارات الدولة الإسلامية، وكانت النتيجة ضياع الإنسان الذي كان يحتمي بحمى تلك الحضارتين، والذي تلاشت لديه كل مشاعر الفخر والاعتزاز وحلت محلها مشاعر الذل والضياع.

فالحرب - التي كانت السبب في الضياع - هي الظاهرة الأكثر غرابة والأكثر فرادة أيضاً بين كل الظواهر الاجتماعية، إذ تتصف بميزات خاصة تمنعنا أن نخلط بينها وبين باقي مظاهر العنف أو الأعمال العدوانية، فهي ذروة العدوانية الجماعية.[2]

وضياع الإنسان هو أكبر ضياع لكل الموجودات على هذه الأرض ؛ فالإنسان هو الجوهر أو النواة التي من خلالها ومن حولها تنبثق الأشياء وتكتسب الحياة معناها ومبناها والحضارة لا تعني أكثر من قدرة الذات على التعرف على نفسها بوعي والحضارات على درجات وفق ما توفره من اختيار للذات كي تعبر عن نفسها وإذا انعدمت قدرة الذات أو الإنسان على الاختيار فإن ذلك شبيه بانتحار الحضارة واغتيال الذات، فالإنسان ذات معينة لأنه منح القدرة على الاختيار، أما إذا ضاعت أو فقدت مثل هذه القدرة لأن ذلك يعني أن تخبو جذوة الحياة وتنطفئ شعلته.[3]

وبضياع الوطن وفقده فقد الإنسان عند الشاعرين تلك الشعلة وخبت جذوة الحياة لديه فأصبح ضائعاً لا حياة فيه، ولم يعد إنساناً يتمتع بإنسانيته التي بها فُضل على كل المخلوقات، ولكنه أصبح بقايا إنسان.

قال الرندي:

أتى على الكل أمر لا مرد له حتى قضوا فكان القوم ما كانوا

.....

١- محمد الهلالي وعزيز لزرق، العنف، دار توبقال،المغرب، ص: ١٤.
٢- المرجع السابق، ص: ٤٤و٥٤.
٣- د. تركي الحمد، عن الإنسان..(مرجع سابق) ص: ٧٢و٧٣.

يـا مـن لـذلـةِ قـومٍ بـعـد عـزهـم أحـال حـالـهـم كـفـرٌ وطـغـيـانُ

بـالأمـس كـانـوا مـلـوكـاً فـي مـنـازلـهـم والـيـوم هـم فـي بـلاد الـكـفـرِ عـبـدانُ

فـلـو تـراهـم حـيـارى لا دلـيـل لـهـم عـلـيـهـم مـن ثـيـاب الـذل ألـوان

ولـو رأيـت بـكـاهـم عـنـد بـيـعـهـم لهالك الأمـر واسـتـهـوتـك أحـزانُ

يـا رب أم وطـفـل حـيـل بـيـنـهـا كـمـا تـفـرق أرواح وأبـدانُ

وطـفـلـة مـن حـسـن الـشـمـس إذ طلعت كـأنـمـا هـي يـاقـوت ومـرجـانُ

يـقـودهـا الـعـلـج لـلـمـكـروه مكرهـة والـعـين بـاكـيـة والـقـلـب حـيـرانُ[1]

الأندلسي كان شديد التعلق بوطنه، وبفقده لكنف الوطن أصبح ضائعاً هائماً غير مستقر نفسياً ولا اجتماعياً، فنجد التعبيرات التي جاء بها الرندي مؤكدة هذه المعاني القلقة: كأن القوم ما كانوا/ ذلة بعد عزة/أصبحوا عبيداً بعد أن كانوا ملوكاً/أحزان/حيارى/الفُرقة/بكاء/الحيرة، نجد المرارة والألم عنده والتي بها يعبر عن مشاعر حضارة كاملة وإنسان ضائع.

« فقد كانَ الشاعرُ الأندلسي يَعيشُ تَجربَة حبٍ حَية، يعيشُها بكلِ جوارحه، هي تجربَةُ حب الوطن، أرضاً وقوماً وحضارة، فالأرض كساها الله سبحانه أبهى حُلل الجمال، فغدَت الطبيعة جُزءاً من كَيَانهم لا يَقدِرون عَلى الابتعادِ عنه واضطرمَت لها أفئدَتهم.»[2]

فلك أن تتخيل حال المحب الذي كان يكن كل ذلك الحب والولاء والتعلق لأرضه كيف أصبح بعد فقده ذلك ! إنه ضياعٌ مختلط مع مشاعر القلق والخوف من المستقبل، وحرارة شوق إلى الوطن المسلوب، ولوعة وحسرة وتعب مضني إلى معاقل الطفولة، وروح ظامئة إلى رائحة وعبق نسيم الوطن.

وكذلك نجد الرندي يصور مأساة الإنسان الملك الذي بعد عزة الملك أصبح عبداً ذليلاً ومأساة الإنسان المواطن العادي الذي أصبح يباع ويشترى وعينه تفيض دمعاً من الذل بعد الحرية والعز، ومأساة الإنسان الطفل الذي حيل بينه وبين أمه، ومأساة الإنسان الأم التي حيل بينها وبين أبنائها كما يُفرَق بين روح وجسد، ومأساة الإنسان الفتاة التي يقودها العدو الكافر مُكرهةً ليُفعل بها ما يشاءون، إنه تصوير لكل شرائح المجتمع الأندلسي تقريباً، فكل الشرائح ذاقت من ويلات و تبعات الحرب ما ذاقت، وكلهم يشتركون في الضياع. فنجد الرندي يصور ذلك الإنسان أوضح تصوير، حيث إن الصراع كان قضيةً للشاعر، فإن موقعه لم يكن فيه محايداً أو مجاملاً، بل مؤثراً ومتأثراً به، ومعبراً

١- المقري التلمساني، نفح الطيب (مرجع سابق) الصفحات ٢٧٩و٢٨١.

٢- انظر، د. عدنان صالح مصطفى، في الشعر الأندلسي، دار الثقافة، الدوحة١٤٠٧هـ ١٩٨٧م، ص ١٦١.

عنه بالكلمة الشاعرة، فقد كان مؤرخاً موثقاً لأحداثه.[1]

وفي تصويره لذلك نجد أنه يحاول أن يدعو إلى التعاون بإيراد مشاهد مؤثرة من المأساة التي لحقت بالمسلمين، إذ تحاول هذه المشاهد إثارة العاطفة الدينية والإنسانية وإثارة الحمية، ففي قوله إنهم صاروا عبيداً في بلاد الكفر محاولة لإثارة العاطفة الدينية، وفي وصفه بيعهم في أسواق الرقيق وهم يذرفون الدمع على ما آلوا إليه، ووصفه انتزاع أطفال من أحضان أمهاتهم، محاولة لإثارة المشاعر الإنسانية، وفي وصفه للفتاة اليافعة الجميلة التي يكرهها الجندي الأسباني على الفاحشة، محاولة لإثارة الحمية نحو العرض، وهي لا شك مشاهد تلهب المشاعر وتثير الأسى، فهذه العناية عند الرندي بالصورة بوصفها تقنية فاعلة من تقنيات الاتصال الجماهيري، والتأثير في المتلقي، وخاصة المتلقي المسلم في الأندلس وخارجها وفي زمن الشاعر، لتحريك مشاعره وضمان تعاطفه مع الأندلسيين واستثارة حميته لنصرتهم[2].

إن عرض الرندي المشاهد السابقة المؤثرة تمثل ما حل بالأندلسيين بعد استيلاء العدو على مدنهم، والذي ينعم النظر في هذه المشاهد يتخيل الشاعر ممسكاً بآلة تصوير تلفزيوني وينتقل بعدستها من مشهد إلى مشهد، وعندما شرع الرندي بعرض هذه المشاهد بعبارتي (فلو تراهم) و(لو رأيت) ؛ فقد أدت وظيفة تهيئة العقل والمخيلة لدى المتلقي لاستقبال المشاهد بوضوح.

يـا مـن لـذلـة قـومٍ بـعـد عـزهـم أحـال حـالـهـم كـفـرٌ وطـغـيـانُ

بـالأمـس كـانـوا مـلـوكـاً فـي مـنـازلـهـم والـيـوم هـم فـي بـلاد الـكـفـرِ عـبـدانُ

فـلـو تـراهـم حـيـارى لا دلـيـل لـهـم عـلـيـهـم مـن ثـيـاب الـذل ألـوان[3]

إنه مشهد قوم ذلوا بعد أن كانوا أعزة وملوكاً، وأصبحوا عبيداً في بلاد العداء ويسيرون حيارى تائهين لهول ما أصابهم، تظهر عليهم صور من الذل وعلاماته، ثم تنتقل عدسة آلة التصوير إلى مشاهد تفصيلية مؤثرة منها، مشهد بيع بعض الأسرى والمساومة عليهم وهم مكبلون في الغلال ويذرفون الدمع.

ولـو رأيـت بـكـاهـم عـنـد بـيـعـهـم لهالك الأمـر واسـتـهـوتـك أحـزان[4]

ثم تنتقل العدسة إلى مشهد إنساني فاجع آخر وهو مشهد أم ينتزع العداء طفلها من بين يديها فيصبح الطفل من فريق والأم مع فريق آخر، وكلا الأم والطفل يتشبث بالآخر وهو يصيح، ثم يفرق

١- د. عبدالحميد عبدالله الهرامة، القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري الظواهر والقضايا والأبنية، كلية الدعوة الإسلامية ١٤٢٤هـ - ١٩٩٦م، ط ١، ج ١، ص ٣٩٤.

٢- أ.د صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي،(مرجع سابق) ص ١٢٢و ١٢٣و ١٢٥.

٣- المقري، نفح الطيب (مرجع سابق) ص ٢٨١.

٤- المرجع السابق ص ٢٨١.

الأعداء كما تفرق الروح عن البدن.

يـا رب أم وطـفـل حـيـل بـيـنـهـا كـمـا تـفـرق أرواح وأبـــــدانُ[1]

ثم يواصل الشاعر تفطير أكباد قرائه (مشاهديه) ويمعن فيهم إيجاعاً عندما ينقل عدسته إلى مشهد آخر، وهو مشهد فتاة حديثة البلوغ فائقة الجمال كأنما هي الياقوت والمرجان، يقودها علج أسباني ضخم الجثة لا رأفة عنده ليمارس معها المكروه رغماً عنها وهي تحاول التحرر من قبضته.

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كـأنـمـا هـي يـاقـوت ومـرجـــــانُ

يـقـودهـا الـعـلـج لـلـمـكـروه مكرهـــة والـعـين بـاكـيـة والـقـلـب حيـــرانُ [2]

إن هذه المفارقة التي أقامها الشاعر بين تلك الفتاة الجميلة حديثة السن وبين ذلك الأسباني الضخم المتوحش، إنما قصد منها جعل إكراهها على المكروه من قبل (العلج) أمراً حتمياً أو بالغ الاحتمال.[3] إنها مشاهد الحرب والضياع جاء بها الشاعر ليبين مأساة الضياع.

وكانت آلة التصوير حاضرة كذلك عند سعدي الشيرازي، خاصة أن ظروف التصوير عنده في بغداد لم تكن مختلفة عما كانت في الأندلس، فمشاهد الضياع كانت مؤلمة وبإرسال قوي وبث واضح للمتلقي (المشاهد).

تـزاحـمـت الـغـربـان حـول رُسـومـهـا فـأصـبـحـت الـعـنـقـاء لازمـة الـوكـــر

.....

فـلـيـت صـمـاخـي صـم قـبـل اسـتـمـاعـه بهتك أساتير المحارم في الأســـر

عـدون حـفـايـا سـبـسـبـاً بـعـد سـبـسـبٍ رخـائـم لا يسطعن مشياً على الحُبر

لـعـمـرك لـو عـايـنـت لـيـلـة نـفـرهـــم كـأن الـعـذاري في الـدجـى شُـهُـبٌ تسري

وإن صـبـاح الأســـر يـوم قـيـامـــةٍ على أمم شعثٍ تساقُ إلى الحشرِ

.....

يـسـاقـون سـوق الـمـعـز في كـبـدِ الـفـلا غـرائـز قـومٍ لم يـعـودنَ بـالـزجـــر

١- المرجع السابق ص ٢٨١.
٢- المرجع السابق ص ٢٨١.
٣- أ.د صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي،(مرجع سابق)ص: ١٢٥و١٢٦.

جـبـلـن سـبـايـا سـافـراتٍ وجـوهـهـا كـواعـبَ لم يـبـرزن مـن خـلـل الخِـــدر

.....

تـقـوم وتجـثـو في الـمـحـاجـر والـلـوى وهل يختفي مشيُ النواعم في الوعر ؟[1]

إنها مشاهد واضحة الصوت والصورة، بل إن المصور فيها كان دقيقاً في عمله مبدعاً في تصويره، حيث إنه كان يغطي الزوايا الخطرة والمؤثرة، التي تجعل المشاهد يذرف الدمع، ويتألم حرقة لهول ما يشاهد، إنه الإتقان والصدق في نقل وتغطية الحدث.

تـزاحـمـت الـغـربـان حـول رُسـومـهـا فأصبحت العنقاء لازمة الوكـــر[2]

فهو مشهد تزاحم العدو وتكالبه على أصحاب الأرض، مما جعل صاحب الأرض يلزم مخبأه خوفاً من العدو، مشهد مروع يجعل المشاهد (المتلقي) يستشيط غضباً ليتمنى الدخول في الصورة ويهرع لنجدة المظلوم، إن الشاعر(المصور) وفق في التقاط هذا المشهد، ونجح في استثارة الحمية الإنسانية لدى المشاهد.

وفي المشهد الثاني ركز على صوت النجدة والألم من نساء عفيفات تهتك أساتيرهن على مرأى من الجميع.

فـلـيـت صـمـاخـي صـم قـبـل اسـتـمـاعـه بهتك أساتير المحارم في الأســـر[3]

إنه مشهد مؤلم ولكنه لا بد من إيصاله للمتلقي لإستثارة الحمية للعرض لديه، فالمتلقي العربي يحتاج إلى صوت وصورة للتأثير عليه، وليقوم من سباته !

وتنتقل العدسة لنساء الخلافة اللواتي كن في نعيم، لا تطلع عليهن الشمس، ولا يستطعن المشي إلا على الناعم،ولكن الحال تغيرت فالمشهد الآن يدمي القلب، ويفطر الفؤاد، وكأن المصور (الشاعر) جاء بلقطة لهن أثناء الخلافة الزاهرة والأيام الخوالي الجميلة وهن يمشين الهون مع وصيفاتهن في دعة وهدوء في ربوع القصر والبستان، لتنقل العدسة إلى ما هو حاضرٌ الآن، حيث تبدلت الأوضاع إلى ما لا يمكن تخيل ما هو أسوأ منها.

١- د. شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية (مرجع سابق) الصفحات من ٣١ إلى ٤١.
٢- المرجع السابق ص ٣٥.
٣- المرجع السابق ص ٣٦.

عـدون حفـايـا سـبـسـبـاً بـعـد سـبـسـبٍ رخـائـم لا يسطعن مشياً على الحُبـر

.....

جـبـلـن سـبـايـا سـافـراتٍ وجـوهـهـا كـواعـبَ لم يـبـرزن مـن خـلـل الخِـدر

.....

تـقـوم وتجـثـو فـي المـحـاجـر والـلـوى وهل يختفي مشيُ النواعم في الوعر ؟[1]

إن المشهد يبين إنهن لم يكن أحد ليجرؤ على النظر إليهن، ولكن الآن هن سافرات، حالهن لا يرضي مسلماً ولا صاحب نخوة، فترى العدسة تنتقل بينهن وهن يمشين مكرهات إلى الأسر، ترى إحداهن تقع على الأرض والصخر ثم تُسحب لتقوم وتكمل المسير إلى الضياع، إنها رحلة من حياة إلى أخرى ؛ بل من حياة إلى موت بالإكراه.

والعدسة ما زالت تعمل لتنقل المشاهد من هنا وهناك، إنها لا تستطيع التركيز على زاوية واحدة لكثرة المشاهد وتتابعها، فنرى بين المشاهد مشهد الناس وهم يساقون كالمعز إلى وسط الفلا ليتم بيعهم لمن يريد، وكأنه يوم الحشر لشعث حيرى لا يملكون لأنفسهم شيئا.

وإن صـبـاح الأسـر يـوم قـيـامـةٍ على أمم شعثٍ تساقُ إلى الحشرِ

.....

يـسـاقـون سـوق المـعـز في كـبـدِ الـفـلا غـرائـز قـومٍ لم يـعـودنَ بالزجـر[2]

إنها مشاهد مؤلمة واقعية، لم تكن في حاجة إلى المبالغة، ولا لمونتاج ولا لمؤثرات صوتية ولا لتعليق من المذيع، إنها مشاهد تتحدث عن نفسها، جاء بها الرندي والشيرازي ليضعاها أمام المتلقي ضمن حلقة كان المشاهد هو المعلق والمخرج فيها، وكان عنوان البرنامج هو الضياع.

١- د. شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣٦و٣٧.
٢- د. شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية (مرجع سابق) ص ٣٦.

الخاتمة:

جاءت القصيدتان وثيقة تاريخية سياسية اجتماعية لما حل بالقطرين، وموافقة لما حملته لنا كتب التاريخ من زوال للمدن والممالك، ولكن الجديد في تناول القصيدتين واستكمالاً لما بدأناه في الترتيب والتسلسل في الأحداث، وجعل الدراسة سلسة سهلة أمام المتلقي، جعلناها في موضوعات فرضتها الأبيات، وجاء بها الشاعران بطريقة مبدعة، وقد يتساءل البعض: كيف اتفق شاعران في موضوعات موحدة مع البعد الزمني والجغرافي لكل منهما ؟! فنجيب الإنسان هو الإنسان، والمشاعر الإنسانية السوية النابعة من خلفية وثقافة إسلامية يمكن أن تتشابه في المشرق والمغرب وأكبر دليل على ذلك الموضوعات التي جاء بها الرندي والشيرازي في قصيدتيهما فنرى الدين و المواطنة والغربة والزمن والمكان والإنسان، كلها موضوعات حاضرة في القصيدتين، وهذا يعطي تحدياً للقارئ في البحث عن موضوعات أخرى – قد توجد- في القصيدتين، واكتفيت بهذه الموضوعات باعتبارها – في نظري – من أهم الموضوعات التي تعطي أبعاداً جديدة في دراسة العمل الأدبي، كما يفتح هذا العمل الباب أمام الباحثين في تذييل القصيدة لموضوعات جديدة تعطي العمل الأدبي حقها من الإبداع، حيث إن البحث في عملٍ أدبي كمنجم ماسٍ يستطيع كل باحثٍ أن يأخذ منه بأية كمية يشاء وبأي شكل يرتضيه، ليخرج منه إما بعقد أو حجر مصقول أو تحفة نادرة، ويبقى المنجم ثرياً سخياً ولا يمكن أن نفرق بين العمل الأدبي وصاحبه ففي النهاية هو تجربة شعورية له، تبين ما يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس وقد حاولنا أن نربط بينه وبين عمله الفني في كل مبحث لنرجع إلى ما يريده من هذا العمل الأدبي، وكل الموضوعات تؤكد إحساس الشاعرين بالقهر والحسرة والحزن لما حل في البلاد الإسلامية من ضياع نجمَ عنه ضياع الإنسان ودينه وغربته في زمن ومكان كان وقع ذلك عليه عظيماً.

كانت الرحلة العلمية شاقة بقدر متعتها، ورثاء المدن والممالك ليس بالموضوع الجديد، والذي يدمي القلب أسباب الرثاء ودواعي السقوط، وأنه لم يكن على مرحلة واحدة أو مفاجئة، وإنما على مراحل وعلى مدى سنوات كان بالإمكان تدارك المصيبة ودفع الخطر، والموضوعات الفاعلة كان لها الأثر الواضح لما حل بها فالدين والمواطنة والغربة كانت من أهم العناصر المؤثرة، فالدين ومروره بمراحل من الدين الفاتح على المؤسس إلى الغريب، وكذلك المواطنة التي تحولت إلى مهزومة في الأخير، وأصبحت غير واضحة بعد أن حاولوا طمسها ومسح هويتها وكذلك الغربة بزواياها الثلاث، الزمان والمكان والإنسان، لتتفرق الزوايا الثلاث وتنفصل لتحيط بها الغربة من كل جانب، وكان الزمن وارتباطه مع الذات متفاعلاً فقد تغير من زمن بناء إلى انشغال منتهياً بزمن غربة، والمكان الذي كان حلماً ثم وطناً وتحول إلى طلل يحمل ذكريات حنين وملامح غير واضحة المعالم، وأخيراً الإنسان الذي تفاعل أولاً وأخيراً وأصبح ضائعاً بعد أن كان بانياً قبل أن يختار أن يكون هادما، فكان الضياع له، وبمن حوله، وبضياعه ضاعت الأحلام، ولكنه رغم ذلك يبقى الأمل الوحيد في إعادة رسم الطريق، وتوضيح

المعالم، وإرجاع العز والسلطان، وبيده أن يعيد الإنسان الباني ليتغلب على الهادم ويأخذ بيد الضائع، وليبدأ المدح والفخر، ويترك الرثاء !

وقد اتضح من الفصل الأول ومن خلال إيراد المعلومات التاريخية فيه بصورة متسلسلة مرتبة لأسباب النكبتين، وبيان الظروف الداخلية والخارجية بأسلوب موجز واضح، كان الهدف منه الاطلاع على الأسباب الرئيسية الهامة دون التعمق في التاريخ ؛لأن الهدف من الفصل كان التعريف بما حل في القطرين، السبب الذي كانت نتيجته إبداع قصيدتين من أروع القصائد في رثاء المدن والممالك، وسرد الأحداث التاريخية بهذه الصورة تجعل المتلقي يدرك الأسباب الرئيسية دون التشتت في أمور تاريخية متشابكة.

وأخيراً أقدم هذا الجهد المتواضع بين أيدي نخبة من علمائنا، وأقف أمامهم موقف الطالب باستحياء راجية أن ينال عملي القبول، فإن وفقت فمن الله، وإن اعترى عملي النقص والخطأ فمن نفسي ومن الشيطان.

والحمد لله أولاً و آخراً.

الملحق الأول

ترجمة الشاعرين

أبو البقاء الرندي

هو أبو البقاء أو أبو الطيب، صالح بن يزيد بن شريف الرندي، من علماء الأندلس وشعرائها المشهورين، بربري الأصل، من قبيلة نفزة، ومن بلدة رُندة الأندلسية، حيث كان مولده فيها سنة ٦٠١هـ (١٢٠٤م). أكثر من التردد على مدينة غرناطة يسترفد ملوكها، وقد اجتمع فيها بلسان الدين الخطيب، وزير أميرها ابن الأحمر. قال عنه ابن عبدالملك: كان خاتمة أدباء الأندلس، وقال ابن الخطيب: له تآليف أدبية وقصائد زهدية، ومقامات في أغراض شتى. له علم بالحساب والفرائض، وتصانيفه مختصرة مدونة، منها كتاب الوافي في علم القوافي، وروضة الأنس ونزهة النفس. واشتهر أبو البقاء في ميدان الأدب بقصيدته النونية المشهورة، حتى كأن ليس له غيرها.

وقد توفي سنة ٦٨٤هـ (١٢٨٥م)[1].

أما مناسبة القصيدة فقد وردت في كتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، لعلي بن أبي زرع الفاسي، حيث يقول المؤلف عن سنة ٦٦٥ هـ: وفيها صالح ابن الأحمر ألفونش على أن أعطاه ابن الأحمر نحو أربعين مسورا من بلاد المسلمين من جملتها شريش والمدينة والقلعة. وقيل إن جملة ما أعطى ابن الأحمر لألفونش من بلاد المسلمين من المدن والحصون المسورة مئة مسور وخمس مسورات من بلاد شرق الأندلس، ولما أعطى ابن الأحمر البلاد المذكورة لألفونش قال الفقيه أبو محمد صالح بن شريف الرندي يرثي بلاد الأندلس ويستنصر بأهل العدوة من مرين وغيرهم بقصيدته النونية.[2]

سعدي الشيرازي

هو الشيخ مشرف الدين بن مصلح الدين عبدالله الشيرازي، ولد في مدينة شيراز (إيران) سنة ٦٠٦هـ (١٢٠٩- ١٢١٠م) ونشأ فيها، وكان مصلح الدين في خدمة سعد الأول ابن زنكي السلغري الذي كان أتابكا على فارس (٥٩٩- ٦٢٨هـ) فاتخذ مشرف الدين لقبا من اسم سعد بن زنكي وعرف في التاريخ باسم «سعدي» أو سعدي الشيرازي.

دخل المدرسة النظامية ليتلقى فيها العلم، ويبدو أن ميله كان في مطلع حياته، إلى الفقه والتصوف فحضر دروس الشهاب السُهْرُوَردي (ت ٦٣٢هـ) وسبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) وغيرهما من رجال التصوف. ثم إنه عاد إلى شيراز فلم يطب المقام له فيها لاستمرار الاضطراب السياسي فأخذ يتطوف في الأرض: زار الهند والحجاز وحج مرارا ثم استقر حينا في دمشق وزار بلاد الروم (آسية الصغرى) بعدئذ عاد إلى شيراز حيث توفي فيها سنة ٦٩٠هـ (١٢٩١م).

١- د. علي حسن العتوم، النصوص الأدبية المختارة، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، ص: ٢١١و ٢١٢.

٢- أ. د صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة،٢٠٠٩م، ط ٢، ص: ١١٧.

وقد كتب ونظم في اللغتين الفارسية والعربية، ويغلب الاتجاه الصوفي على جميع آثاره، وله ثلاثة مجاميع من الشعر: كلستان (حديقة الورد: وفيه نثر وشعر باللغتين الفارسية والعربية) وبوستان (البستان: الحديقة) وفيه «كلياته» قصائد فارسية وقصائد عربية ومراث وغزليات وهزليات. وله أيضا رسائل إخوانية وكتاب «بند نامه» (كتاب النصائح).[1]

١- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ج ٣، ص: ٦٦٧و٦٦٨، اختلف المؤرخون والمترجمون في تاريخ ميلاده ووفاته كذلك، ذكرت الدكتورة أمل في (الأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي) أن هناك من أرخ لميلاده سنة ٥٧١هـ وهناك من خمنه عام ٦١٥، وكثير من افتراضه فيما بين هذين التاريخين، وتباينت الآراء – كما ذكرت – في سنة وفاته أيضا، فهناك من يراها سنة ٦٩٠هـ، وآخر يؤرخ لها سنة ٦٩١هـ ' إلا أن الأغلب من المؤرخين والمترجمين لسعدي أجمع على وفاته عام ٦٩١هـ.وذكرت كذلك بعد أن احتضنته شيراز بمدارسها العديدة صبيا نافعا، ومنها بدأ سعدي يحبو، فيشب عن الطوق، ويخوض بحار اللغة العربية وآدابها بعامة، ويجول في ساحة القرآن الكريم ورحابه بخاصة، ويشد رحاله صوب بغداد التي امتازت عن سائر البلاد الإسلامية بجامعاتها ومدارسها وأربطتها ودورها.

الملحق الثاني

قصيدة الرندي

لكل شيء إذا ما تم نُقْصَانُ ... فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسانُ

هي الأمور كما شاهدتها دُوَلٌ ... مَنْ سره زمن ساءته أزمانُ

وهذه الدار لا تُبْقِي على أحد ... ولا يدوم على حال لها شانُ

يمزق الدهر حتما كلَ سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان

وينتضي كل سَيفٍ للفناء ولو ... كان ابن ذي يزن والغمد غِمدانُ

أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شداد في إرم ... وأين ما ساسه في الفرس ساسان

وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان

أتى على الكل أمر لا مرد له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلك ومَلك ... كما حكى عن خيال الطيف وسْنانُ

دار الزمان على دارا وقاتله ... وأمَ كسرى فما آواه إيوان

كأنما لصعب لم يسهل له سبب ... يوما ولا ملك الدنيا سليمان

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يسهلها ... وما لما حل بالإسلام سلوان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان

أصابها العين في الإسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان

فاسأل بَلنسية ما شأن مُرسية ... وأين شاطبة أم أين جيانُ

وأين قرطبة دارُ العلوم، فكم من عالم قد سما فيها له شانُ
وأين حمص وما تحويه من نُزه ونهرها العذب فياض وملآن
قواعد كن أركان البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبق أركان
تبكي الحنيفية البيضاء من أسف كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عُمران
حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن إلا نواقيس وصُلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ إن كنت في سِنةٍ فالدهرُ يقظانُ
وماشيا مرحا يلهيه موطنه أبعد حِمْصٍ تغر المرءَ أوطانُ
تلك المصيبة أنست ما تقدمها ومالها مع طول الدهر نسيان
يا راكبين عِتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عُقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء البحر في دعةٍ لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ مِن أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم رُكْبَانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم وأنتم يا عباد اللهِ إخوانُ
ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار وأعوانُ
يا من لذلة قومٍ بعد عزهم أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدانُ

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتكَ أحزانُ
يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرقُ أرواح وأبدانُ
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجانُ
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيرانُ
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمانُ[1]

١- أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ٦، ص: ٢٧٩الى ٢٨١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

قصيدة الشيرازي

حبست بجفني المدامـــع لا تجري فلما طغى الماء استطال على السكر
نسيم صبا بغداد بعد خرابها تمنيت لو كانت تمر على قبري
لأنَّ هلاك النفسِ عند أولي النهى أحبُّ إليهم من عَيش منقض الصدرِ
زجرت طبيباً جس نبضي مداويا إليك فما شكواي من مرض يبري
لزمت اصطبارا حيث كنت مفارقا وهذا فراقٌ لا يعالج بالصبر
تسائلني عما جرى يوم حصرهم وذلك مما ليس يدخلُ في الحصر
أديرت كؤوسُ الموت، حتى كأنه رؤوس الأسارى ترجحن من السكر
لقد ثكلت أم القرى ولكعبة مدامع في الميزاب تسكب في الحجر
بكت جدر المستنصرية ندبة على العلماء الراسخين ذوي الحجر
نوائب دهرٍ ليتني مت قبلها ولم أر عدوان السفيه على الحَبر
محابر تبكي بعدهم بسوادها وبعض قلوب الناس أحلكُ من حِبرِ
لحى اللهُ من يسدَى إليه بنعمة وعند هُجوم الناس يألفُ بالغدر
مَررتُ بِصُمِّ الراسياتِ أَجوبُها كخَنساءَ مِن فَرطِ البُكاءِ عَلَى «صَخرِ»
أيا ناصِحي بالصَّبرِ دَعني وزَفرَتي أَمَوضِعُ صَبرٍ والكُبُودُ عَلَى الجَمرِ؟.
تَهَدَّمَ شخصي مِن مُداوَمَةِ البُكَى وَيَنهدِم الجُرفُ الدَّوارِسُ بالمَخرِ
وقفت بعبادان أرقب دِجلة كمثل دمٍ قانٍ يسيل إلى البحرِ
وفائض دمعي في مصيبة واسطٍ يزيد على مد البُحيرة والجزر

فجرتُ مياهَ العَينِ فازدَدتُ حُرقَةً كَما احتَرَقَت جوفُ الدَّماميلِ بالفَجر
ولا تَسأَلَنّي كَيفَ قَلبُكَ وَالنَّوَى جِراحَةُ صَدرِي لا تَبَيَّنُ بالسَّبرِ
وهب أن دار الملك ترجع عامراً ويغسل وجه المعالمين من الغفر
فأين بنو العباس مفتخر الورى ذوو الخلق المرضي والغُرر الزهر ؟
غدا سمرا بين الأنام حديثهم وذا سمرٌ يدمي المسامع كالسمر
وفي الخبر المروي: دين محمد يعود غريبا مثل مبتدأ الأمر
أأغرب من هذا ؟ يعود كما بدا وتسبى ديار السلم في بلد الكفر ؟
فَلا انحَدَرَت بعدَ الخلائفِ دِجلَةٌ وحافاتُها لا أعشَبَت وَرَقَ الخُضرِ
كأن دم الأخوين أصبح نابتاً بمذبح قتلى في جوانبها الحُمر
بكت سمراتُ البيدِ والشيحُ والغضا لكثرةِ ما ناحت أغاربهُ القفر
أيذكر في أعلى المنابر خطبة ومستعصم بالله لم يك في الذكر ؟
ضفادع حول الماء تلعب فرحة أصبر على هذا ويونس في القعر
تزاحمت الغربان حول رُسومها فأصبحت العنقاء لازمة الوكر
أيا أحمد المعصوم لست بخاسر وروحك والفردوس عسر مع اليسر
وجناتُ عندنِ خففت بمكاره فلا بد من شوك على فنن البسر
تهنا بطيب العيش في مقعد الرضا ودع جيف الدنيا لطائفة النسر
ولا فرق ما بين القتيل وميت إذا قمت حياً بعد رمسك والنخر
تحية مشتاقٍ وألف ترحم على الشهداء الطاهرين من الوزر
هنيئا لهم كأس الموت مترعاً وما فيه عند الله من عظم الأجر

فلا تحسبن الله مخلف وعده ... بأن لهم دار الكرامة والبشر

عليهم سلام الله في كل ليلة ... بمقتلة الزورا إلى مطلع الفجر

أأبلغ من أمر الخلافة رُتبة ... هلم انظروا ما كان عاقبة الأمر ؟

فليت صماخي صم قبل استماعه ... بهتك أساتير المحارم في الأسر

عدون حفايا سبسباً بعد سبسب ... رخائم لا يسطعن مشياً على الحُبر

لعمرك لو عاينت ليلة نفره ... كأن العذاري في الدجى شهبٌ تسري

وإن صباحَ الأسرِ يوم قيامةٍ ... على أمم شُعثٍ تساق إلى الحشر

ومستصرخٍ يا للمروءة ! فانصروا ... ومن يصرخُ العُصفور بين يدي صقر ؟

يساقون سوق المعز في كبد الفلا ... غرائز قوم لم يعَودن بالزَجر

جلبن سبايا سافرات وجوهها ... كواعب لم يَبرُزن من خلل الخِدر

وعِترة قنطوراءَ في كل منزلٍ ... تصيحُ بأولاد البرامك من يشري

تقوم وتجثو في المحاجر واللوى ... وهل يختفي مَشيُ النواعم في الوَعر ؟

لقد كان فِكري قبل ذلك مائزا ... فأحدث أمرٌ لا يحيط به فكري

وبين يدي صَرف الزمان وحُكمه ... مغللة أيدي الكِياسة والخُبر

وَقَفتُ بِعَبّادانَ بَعدَ صَراتِها ... رأيتُ خَضيباً كالمِنَى بِدَمِ النَحرِ

مَحاجِرَ ثَكلَى بالدُموعِ كَريمَةً ... وَإن بَخِلَت عَينُ الغمَائمِ بالقَطرِ

نعوذ بعفو الله من نار فتنة ... تأجج من قطر البلاد إلى قطر

كأن شياطين القيود تفلتت ... فسال على بغداد عين من القطر

بدا وتعالى من خُراسان قسطل ... فعاد ركاماً لا يزول عن البدر

إلامَ تَصاريفُ الزَمانِ وَجَورُه ... تُكلّفا مالا نُطيقُ مِن الإصرِ

رعى الله إنساناً تيقظ بعدهم ... لأن مصاب الزيد مزجرة العمرو

إذا كانَ لِلإنسانِ عِندَ خُطوبِهِ ... يَزولُ الغِنَى، طوبى لِمَلَكة الفَقرِ

ألا إنما الأيامُ ترجع بالعطا ... ولم تَكسُ إلا بعد كِسوتها تَعري

وراءك يا مغرور خنجر فاتكٍ ... وأنت مطاطٍ لا تفيقُ ولا تدري

كناقة أهل البدو ظلت حمولةً ... إذا لم تطق حملاً تُساقُ إلى العَقرِ

وسائر ملكٍ يقتفيه زواله ... سوى ملكوتِ القائمِ الصمد الوتر

إذا شَمِتَ الواشي بِمَوتي فَقُل لَهُ ... رُوَيدَكَ ما عاشَ امرؤٌ أَبَدَ الدَهرِ

ومالك مفتاح الكُنوز جميعها ... لدى الموت لم تخرج يداهُ سوى صفر

وإذا كانَ المَوت لا فرق بيننا ... فلا تنظرن الناس بالنظر الشزر

وجارية الدُنيا نُعومَةُ كفها ... محببة لكنها كلب الظفر

ولو كان ذو مال من الموت فلتا ... لكان جديراً بالتعاظم والكبر

ربحتَ الهُدى إن كنت عاملَ صالحٍ ... وإن لم تكن والعصر إنك في خُسر

كما قال بعضُ الطاعنين لقِرنِه ... بسُمر القنا نيلت معانقة السُمر

أمدخر الدنيا وتاركها أسى لدار ... غد إن كان لابدَ من ذُخر

على المرء عارٌ كثرةُ المالِ بعده ... وإنك يا مغرور تجمعُ للفخر

عفا الله عنا ما مضى من جريمة ... ومن علينا بالجميل من الصبر

وصان بلاد المسلمين صيانة ... بدولة سلطان البلاد أبي بكر

مليكٌ غدا في كل بلدة اسمه ... عزيزاً محبوباً كيوسف في مصر

لقد سعد الدنيا به دام سعده وأيده المولى بأولوية النصر

كذلك تنشا لينة هو عرقها وحُسن نبات الأرض من كرم البذر

ولو كان كِسرى في زَمانِ حَياتِه لقال إلهي اشدُدْ بدولتِه أَزْري

بِشُكرِ الرعايا صين من كل فتنة وذلكَ أن اللب يُحفَظ بِالقَشْرِ

يُبالغُ في الإنفاق والعدلِ والتُقى مبالغَة السعدِي في نُكتِ الشعرِ

وما الشعر أيم اللهِ لست بمدع ولو كان عندي ما ببابل من سحر

هنالك نقادون علماً وخبرة ومنتخبو القول الجميل من الهُجر

جرت عبَراتي فوق خدي كآبة فأنشأت هذا في قضية ما يجري

وَلَوْ سَبَقَتْني سَادَةٌ جَل قَدرُهُم وما حَسُنَت مني مُجَاوَزَة القَدر

ففي السمط ياقوت ولعل وجاجة وإن كان لي ذنب يكفر بالعذر

وَحُرقَةُ قَلبي هَيّجَتني لِنَشرهَا كما فَعَلَت نارُ المَجامِرِ بالعِطر

سَطَرتُ وَلولا غَضُّ عَيني عَلَى البُكا لَرَقرَقَ دَمعي حَسرةً فَمَحا سَطري

أحدثُ أخباراً يضيق بها صدري وأحمل آصاراً ينوء بها ظهري

وَلا سَّيما قَلبي رَقيقٌ زُجاجُه ومُمتَنِعٌ وَصلُ الزُجاجِ لَدَى الكَسر

أ لا إنَّ عَصري فيهِ عَيشي مُنَكَّدٌ لَيتَ عِشَاءَ المَوتِ بادَرَ في عَصري

خليلي ما أحلى الحياة حقيقة وأطيبها، لولا الممت على الإثر

وَرَبُّ الحِجَى لايَطمَئِنُّ بعيشَةٍ فَلا خَيرَ في وَصلٍ يُرَدَّفُ بالهَجرِ

وسواءٌ إذا ما مت وانقطع المنى أمخزنُ تبن بعد موتك أم تبر ؟

مثل وقوفك عند الله في ملأ يوم التغابن واستيقظ لمزدجر

يا فاعل الذنب هل ترضى لنفسكَ في قيد الأساري وإخوانٌ على سُرر[1]

١- د. جعفر مؤيد شيرازي، سعدي الشيرازي – أشعاره العربية، ص: ٣١ الى ٤١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت.

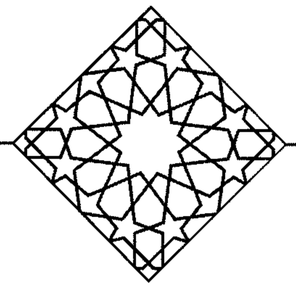

فهرس الفهارس

- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الموضوعات

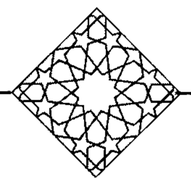

فهرس المصادر و المراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا: المصادر والمراجع

١. أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٨٥م.

٢. أحمد محمود جواد مفنيه، الغربة في شعر محمود درويش – ١٩٧٢م – ١٩٨٢م، الفارابي٢٠٠٤م

٣. د. أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، ط ٩، القاهرة ١٩٨٥.

٤. د. أمل إبراهيم محمد، الأثر العربي في شعر الشيرازي، الدار الثقافية للنشر، الطبعة ٢، القاهرة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٥. د. تركي الحمد، عن الإنسان أتحدث تأملات في الفعل الحضاري، دار المنتخب العربي، بيروت ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٦. د. جعفر مؤيد شيرازي، سعدي الشيرازي أشعاره العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ١٩٨٠م.

٧. جمال الدين الآلوسي، بغداد في الشعر العربي من تاريخها وأخبارها الحضارية، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٨. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر.

٩. د. جمعة شيخة، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي من سقوط الخلافة ق ٥هـ - ١١م إلى سقوط غرناطة ق ٩هـ -١٥م، المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار ١٩٩٧م.

١٠. د. حازم عبد الله خضر، وصف الحيوان في الشعر الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دائرة الشئون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٧م.

١١. (الشيخ) الخضري، الدولة العباسية، مكتبة الإيمان – المنصورة، الطبعة ١، ٢٠٠٩م.

١٢. د. سعاد جبر سعيد، سيكولوجية التفكير والوعي بالذات، دار الكتب الحديث – الأردن ١٤٢٩هـ -٢٠٠٨م.

١٣. د. سعاد جبر سعيد، علم نفس نفس المقارن، دار الكتب الحديث، الأردن ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

١٤. د. سعد بن محمد حذيفة مسفر الغامدي، سقوط الدولة العباسية، نشر أبوحذيفة محمد، الرياض، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٥. سلمان التكريتي، بغداد مدينة السلام وغزو المغول، مكتبة الشرق الجديد، بغداد، ١٩٨٨م.

١٦. د. السيد عبدالعزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، دار المعارف، بيروت، ١٩٦٢م.

١٧. د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي/العصر الإسلامي، دار المعارف، الطبعة ٢٣، القاهرة ١٩٦٥م.

١٨. أ.د صلاح جرار، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، الطبعة ٢، ٢٠٠٩ م.

١٩. د. عبدالحميد عبدالله الهرامة، القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الظواهر والقضايا والأبنية، كلية الدعوة الإسلامية ١٤٢٤هـ -١٩٩٦م.

٢٠. عبد الرحمن جنكه الميداني، أسس الحضارة الإسلامية ووسائلها، دار القلم –دمشق ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م.

٢١. عبدالرزاق الخشروم، الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد الكتاب العربي، دمشق ١٩٨٢م.

٢٢. د. عبدالرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة ٩٢- ٨٩٧ هـ/٧١١- ١٤٩٢ م، دار القلم ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

٢٣. عبدالعزيز المحمد السلمان، من محاسن الدين الإسلامي، الطبعة ١٣.

٢٤. عبدالكريم توفيق العبود،الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ٥٤٧- ٦٥٦ هـ، وزارة الإعلام، بغداد، ١٩٧٦م.

٢٥. د. عبداللطيف الصديقي، الزمان و أبعاده وبنيته، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ -١٩٩٥م.

٢٦. أ.د عبدالله التطاوي، بين التاريخ والشعر في خلافة بني العباس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٠م.

٢٧. د. عبدالله بن علي بن ثقفان، المقومات الفنية في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، الرياض ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٢٨. عبدالله محمد الزيات، رثاء المدن في الشعر الأندلسي، منشورات قاريون، ١٩٩٠م.

٢٩. د. عدنان صالح مصطفى، في الشعر الأندلسي، دار الثقافة جامعة قطر – الدوحة ١٤٠٧هـ -١٩٨٧م.

٣٠. د. عزة حسن، شعر الوقوف على الأطلال من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

٣١. عفيف عبدالفتاح طباره، روح الدين الإسلامي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة ٢٨، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٣٢. د. علي إسماعيل عبد الرحمن، فسيولوجيا النفس طريقك إلى الصحة النفسية، دار اليقين للنشر والتوزيع، الطبعة ١، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٣٣. د. علي حسن العتوم، النصوص الأدبية المختارة، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع.

٣٤. عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ج ٣.

٣٥. د. فؤاد عبد المعطي الصياد، المغول في التاريخ من جنكيز خان إلى هولاكو خان، دار القلم.

٣٦. أ. د فاروق عمر، الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ٣٣٤هـ -٩٤٦م/٦٥٦هـ - ١٢٥٨م. ١٣٥٧هـ - ١٩٨٣م.

٣٧. فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ١٩٩٣م.

٣٨. د. ماهر حسن فهمي، الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٠م.

٣٩. د. محمد إبراهيم حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، دار القلم للنشر والتوزيع ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.

٤٠. محمد بوذينة، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس،منشورات محمد بوذينة، تونس ١٩٩٥م.

٤١. أ.د محمد جاسم الحمادي المشهداني، حب الوطن في التراث والتاريخ، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٤م.

٤٢. د. محمد رضوان الداية، أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، مكتبة سعد الدين، بيروت ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤٣. د. محمد صالح داود القزاز، الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء في النجف ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

٤٤. محمد عبدالله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مكتبة الخانجي، الطبعة ٤، القاهرة ١٣٧٨هـ - ١٩٨٥م.

٤٥. د. محمد موسى هنداوي، سعدي الشيرازي شاعر الإنسانية عصره حياته ديوانه البوستان، مطبعة مصر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥١م.

٤٦. محمد الهلالي وعزيز لزرق، الحرية، دار توبقال،المغرب.

٤٧. محمد الهلالي وعزيز لزرق، العنف، دار توبقال، ط١، المغرب.

٤٨. د. مصطفى طه بدر، محنة الإسلام الكبرى أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول، مطبعة المكتب الثقافي،الجيزة ١٩٤٧م.

٤٩. د. ناصر بن عبد الرحمن بن ناصر الخنين، النظم القرآني في آيات الجهاد، مطبعة الثغر ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

٥٠. هيفاء الفريج، تقنيات الوصف في القصة القصيرة السعودية، المركز الثقافي العربي – النادي الأدبي، الرياض، الطبعة ١، ٢٠٠٩م.

ثالثا: المنشورات العلمية

المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، سعدي الشيرازي أديب الفارسية وشاعرها الكبير من خلال مؤتمره بدمشق ٢٢-٢٥ نيسان ١٩٨٥م، مكتبة د. فتحي الدريني.

رابعا: المراجع الأجنبية المترجمة

١. غاستون باشلار، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢. هانز ميرهوف، الزمن في الأدب، ترجمة د. أسعد رزق، مراجعة العوضي الوكيل، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٢م.

٣. واشنطون ايرفنج، سقوط غرناطة آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، المؤسسة الوطنية للكتاب – الجزائر ١٩٨٨م.

خامسا: الرسائل الجامعية

١. أحمد عقون، رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي القديم ٣٩٩-٩٢٣ هـ، أطروحة ماجستير بإشراف أ.د جودت الركابي، جامعة قسطنطينة، ١٤٠٨هـ ١٩٧٨م.

٢. سعود عبدالعزيز السنعوسي، الموقف النفسي للأدب الكويتي في فترة الاحتلال والتحرير الشعر نموذجا، أطروحة ماجستير، إشراف أ.د تركي أحمد المغيض، جامعة الكويت، ٢٠٠٨م.

٣. عبد الفتاح أحمد، قصيدة الأطلال في شعر ذي الرمة، أطروحة ماجستير بإشراف أ.د محمود الحنفي ذهني، جامعة الزقازيق.

٤. ماجد حسن قاسم الطائي، تأريخ العراق العلامي منذ الاحتلال المغولي لبغداد وحتى الاحتلال العثماني، بإشراف أ.د محمد باقر الحيني ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م.

٥. موسى رزق ريحان، شعر الجهاد والحرب في الأندلس من الفتح حتى نهاية دولة المرابطين، أطروحة دكتوراه بإشراف د. محمد علي مكي، جامعة الكويت، ١٣٩٥- ١٩٧٥م..

فهرس الآيات

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا	المائدة	٣	٤٧
الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ	إبراهيم	١	٤٧
وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ	آل عمران	٨٥	٤٧
ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا	آل عمران	١٠٣	٤٨
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ	الأنفال	١٦،١٥	٤٨
فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ	النساء	٨٤	٤٨
إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ	التوبة	١١١	٤٨
وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾	طه	٣٠،٢٩،٢٨	٦٠

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة	الصفحة
المقدمة	١١
الفصل الأول: انهيار الذات العربية	١٧
المبحث الأول: سقوط بغداد	١٩
أ: الإرهاصات	٢١
ب: الأحداث الكبرى	٢٣
ج: السقوط	٢٨
المبحث الثاني: سقوط الأندلس	٣٣
أ: الإرهاصات	٣٥
ب: الأحداث الكبرى	٣٨
ج: السقوط	٤٠
الفصل الثاني: رثاء المدن والممالك: الموضوعات الفاعلة	٤٣
المبحث الأول: الدين	٤٥
الدين الفاتح	٤٨
الدين المؤسس	٥١
الدين الغريب	٥٣
المبحث الثاني: المواطنة	٥٥
أ- المواطنة الهوية	٥٨
ب- المواطنة الضائعة	٦٠
ج- المواطنة المهزومة	٦١
المبحث الثالث: الغربة	٦٧
أ- غربة الزمان	٧٠

ب- غربة المكان	٧٢
ج- غرب الإنسان	٧٤
الفصل الثالث: رثاء المدن والممالك، الموضوعات المتفاعلة	٧٩
المبحث الأول: الزمن	٨١
أ- زمن بناء الذات	٨٥
ب- زمن انشغال الذات	٩١
ج- زمن غربة الذات	٩٦
المبحث الثاني: المكان	١٠٣
أ- المكان الحلم	١٠٦
ب- المكان الوطن	١٠٨
ج- المكان الطلل	١١١
المبحث الثالث: الإنسان	١١٩
أ- الإنسان الباني	١٢٣
ب- الإنسان الهادم	١٢٥
ج- الإنسان الضائع	١٢٩
الخاتمة	١٣٥
ملحق ترجمة الشاعرين	١٣٧
ملحق القصيدتين	١٤١
فهرس المصادر والمراجع	١٥٥
فهرس الآيات	١٦١
فهرس الموضوعات	١٦٣

ملخص الرسالة

باللغتين العربية والإنجليزية

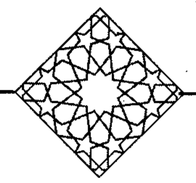

ملخص البحث

جاء هذا العمل ليلقي الضوء على موضوعات متشابكة ومتداخلة في قصيدتين من أروع قصائد الرثاء في تراثنا الأدبي، وجاء اختيار رثاء بغداد والأندلس لما كانت لهما من مكانة مهمة في العالم الإسلامي.فكانت الحرقة كبيرة والألم يدمي القلب لما حل بهما من خراب.

أبدع الرندي والشيرازي في تصوير النكبتين أروع إبداع، فجاءت القصيدتان وثيقة تاريخية، وكانت الموضوعات متداخلة ؛ لتشابه الظروف والأسباب والنتائج، وحاولنا قدر الإمكان أن نستخرجها لتوافق الجو العام للقصيدتين، فكان البحث كدخول منجم ألماس لاستخراج أنفسها وأنقاها.

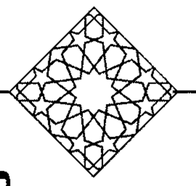

Summary

This work sheds light on the complex and interrelated issues in the poems of the finest poems in our literary lamentation, lament The selection of Baghdad and Andalusia as they have an important place in the Islamic world. Heartburn was large and heart-rending pain of what happened to them from the ruins. Randi and Shirazi excelled in portraying the finest Alinkptin creativity, came Al-gosaidtan a historical document, and the nested themes; the similarity of circumstances and the causes and results, and tried as much as possible, that bit we produce here for the approval of the general atmosphere of the poems, the search was like entering a diamond mine.

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

دبي - الكرامة - شارع زعبيل - ص.ب. 50106، الإمارات العربية المتحدة

هاتف : +971 4 3961777

فاكس : +971 4 3961314

الموقع الإلكتروني : www.islamic-college.ae

0905
هـ ١
2012/هـ1433